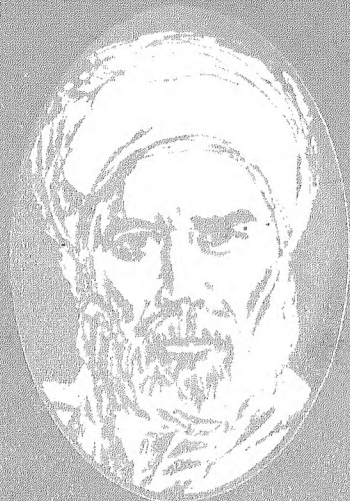


السلسلة الإسلامية

د. محمد عمارة



رسالة التوحيد

للإمام محمد عبده



الإسلام
العلماني

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي

الاسكندرية

رسالة التوجيه

د . محمد عمارة

● الطبعة الثالثة أغسطس ٨٩ ١٩

● جميع الحقوق محفوظة .

● رقم الإيداع ٨٩/٤٤٤٤

الغلاف والإخراج الفني : محمود الهندي .

٤ش العلمين - ميدان الكيت كات - جيزة -

ت ٣٤٤٨٣٦٨

رسالة التوجيه

عن الأستاذ الإمام

هذه الصفحات القليلة ليست ترجمة تقليدية لحياة الإمام فقد وضعت لحياته العديد من الترجمات، على أسس متعددة ومتباينة من المناهج الخاصة بالترجمة لحياة العظماء والمفكرين والحكماء.

وبالرغم من أن لنا العديد من الملاحظات على بعض ما كتب عن حياته من تاريخ، إلا أن المقام الذي نحن فيه ليس مقام الترجمة المستفيضة لحياته الخاصة، لذلك نستبدل الترجمة له بمحاولة تقديم (بطاقته لحياته الفكرية والعملية) - إن جاز هذا التعبير - ففى سطور، شديدة الإيجاز، سنكشف أحداث حياته الفكرية والعملية، مبرزين أهم قسماتها، واضعين اليد على عوامل تكوين هذه القسامات، مشيرين إلى درجات التطور التى حدثت له فى المراحل التى مرت بها حياته. وفى كل ذلك فنحن نستفيد من كل ماقرأناه مما كتب عنه، وبالدرجة الأولى نحتكم الى أعماله الفكرية هو، بعد الجمع لها - وهو ما أنجزناه للمرة الأولى - وبعد التحقيق العلمى لنصوصها كى تتميز عن نصوص غيره - وهو ماحدث أيضاً للمرة الأولى (١) - وهما الأمران اللذان أتاحا لنا تصحيح العديد من تواريخ الأحداث الفكرية والعملية التى شهدتها حياته، والتى أخطأ فى كثير منها من كتبوا له وعنه بعض الترجمات. أما صفحات هذه (البطاقة) فإنها تتسلسل مع تطور الحياة التى ترصد معالمها وقسماتها لتسجل مراحل هذا التطور، ولتقدم لنا عن هذه الحياة صفحات ست ...

(١) لقد جمعنا وحققنا ونشرنا هذه الأعمال ، وصدرت طبعتها عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - سنة ١٩٧٢م، ونقلت ، وطبعها الثانية فى الطريق - تصدر عن دار الشروق - .

- ١ -

ولد الشيخ (محمد عبده حسن خير الله) في قرية (محلة نصر) بمركز (شبراخيت) من أعمال مديرية (محافظة) (البحيرة) في سنة ١٨٤٩م (١٢٦٦هـ) ، في أسرة تعتز بكثرة رجالها ، ومقاومتهم لظلم الحكام ، وتحملهم في سبيل ذلك العديد من التضحيات: هجرة ، وسجن ، وتشريد ، وموت ، وضياح ثروة ... وهو يحكى عن هذا الأمر فيقول: انه قد سعى واشى بأهلى (عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح ، ويقف في وجوه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم ، فأخذوا جميعاً ، وزجوا في السجون واحداً بعد واحد ، ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتاً ، وكان جدى (حسن) ، شيخا بالبلدة ، وهو الذى بقى من البيت مع ابن أخيه إبراهيم ...)

● علمته هذه النشأة الاعتزاز بالمجد والأصالة ، وعدم الربط بين هذه الأصالة وبين الغنى والثروة ، والضم باحترامه على أهل الثراء ، خصوصاً المسرفين منهم والعاطلين عن الكفاة ، وأيضاً الضن بهذا الاحترام على الحكام الظالمين . ولقد لمس الأفغانى فيه هذا الخلق السامى فقال له: (قل لى بالله ... أى أبناء الملوك أنت؟) . وقال عنه الخديوى عباس: (انه يدخل على كانه فرعون!).

● تلقى تعليمه الأولى للقراءة والكتابة ، وحفظ القرآن ، بالقرية ، وبدأ ذلك وهو فى السابعة من عمره (٢) ... ثم ذهب الى (الجامع الأحمدي) بطنطا ليحضر هناك دروس تجويد القرآن الكريم فى سنة ١٨٦٢م (سنة ١٣٧٩هـ) .

(٢) يخطى الأستاذ العقاد في التاريخ لهذا الحدث في كتابه عن الإمام .
لجعله في العاشرة من عمره سنة ١٨٥٩م .

● بدأ فى سنة ١٨٦٤م (سنة ١٢٨١هـ) يتلقى أول دروسه الأزهرية فى (الجامع الأحمدي) ، بعد أن استكمل تجويد القرآن . .
ولكن أساليب التدريس العقيمة قد صدته عن قبول الدروس، فقرر هجران الدراسة بعد عام من شروعه فيها، وعاد إلى القرية سنة ١٨٦٥م (سنة ١٢٨٢هـ)، وتزوج ، وعزم على العمل بالزراعة مع أبيه وأخته والانتقطاع عن ملك التعليم.. ولكن والده رفض ذلك، وقرر إعادته إلى (الجامع الأحمدي) فى نفس العام...

- ٢ -

فى هذه الفترة التقى بالشيخ درويش خضر - خال والده - وهو صوفي كان على اتصال بالزاوية السنوسية، فألقى إليه ببعض من حكمة التصوف، وقاده إلى شىء من سلوك الصوفية، فعادت إليه الرغبة فى طلب العلم، وعاد إلى (الجامع الأحمدي) سنة ١٨٦٥م (سنة ١٢٨٢هـ) ، وبدأ يفكر فى الذهاب إلى القاهرة كى يلتحق بالجامع الأزهر.. وتحت تأثير التصوف حدث ذلك الذى صور به تلك الرغبة عندما كتب ليقول : (فى يوم من شهر رجب من تلك السنة - سنة ١٢٨٢هـ - كنت أطلع بين الطلبة ، وأقرر لهم فى "شرح الزرقانى" ، فرأيت أمامى شخصاً يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجازيب، فلما رفعت رأسى إليه قال ما معناه: ما أحلى حلواء مصر البيضاء.. فقلت له وأين الحلوى التى معك؟ فقال : سيحان الله! من جد وجدا... ثم أنصرف.. فعددت ذلك القول إلهاماً ساقه الله إلى ، ليحملنى على طلب العلم فى مصر، دون طنطا).

● ذهب إلى الأزهر ، بمصر، فى فبراير سنة ١٨٦٦م (شوال سنة ١٢٨٢هـ) (٣).

(٢) يخطئ الأستاذ العقاد في هذا التاريخ ويجعله سنة ١٨٦٥م .

● كان بالأزهر يومئذ حزبان: شرعى محافظ. . وحزب صوفى أقل فى محافظته من الشرعيين. . وحضر محمد عبده دروس كل من الحزبين، فسمع من الحزب الشرعى المحافظ دروس المشايخ: عlish ، والرفاعى ، والجيزاوى والطرابلسى والبحراوى . . ولكنه انتمى إلى الحزب الصوفى ، وكان رائده الشيخ حسن رضوان (المتوفى سنة ١٨٩٢م - سنة ١٣١٠هـ) صاحب منظومة (روض القلوب المستطاب) ... وكان من هذا الحزب الشيخ حسن الطويل، والشيخ محمد البسيونى...

- ٣ -

زار الأفغانى مصر للمرة الثانية، وطاب له المقام بها فى سنة ١٨٧١م (سنة ١٢٨٨هـ) فاتصل به محمد عبده، ولازم مجلسه منذ شهر المحرم من ذلك العام (٤) .. وودع لذلك حلقات الدروس الأزهرية العقيمة بأرجوزة نظمها وقال فيها:

لو كان هذا وصفهم ما شنعوا بل وقتهم فى جاء زيد ضيعوا
ظنوا بأن العلم علم القول ... لا والله ، بل علم القلوب فضلاً
● انتقل به الأفغانى من التصوف والتنسك إلى (الفلسفة - الصوفية) ... وكان الأفغانى يقول: الفيلسوف ان لبس الخشن، وأطال المسبحة، ولزم المسجد فهو صوفى ... وإن جلس فى قهوة (متاتيا) وشرب الشيثة فهو فيلسوف!١٠

(٤) يخطئ الأستاذ العقاد فيقول : أن الإمام لقي الأفغانى فى سنة ١٨٦٩م، وهي السنة التي حدثت فيها زيارة الأفغانى الأولى والمتصورة لمصر ، وهو خطأ ينفيه تأريخ الإمام نفسه لبدء اتصاله بالأفغانى .

● كتب مقدمة (رسالة الواردات) الفلسفية، التي أملاها الأفغانى سنة ١٨٧٢م (سنة ١٢٩٠هـ) ، وهذه المقدمة هي أول الآثار الفكرية التي حفظت لنا من تراثه (وهي لم تنتشر إلا بعد وفاته).

● أول مانشر باسمه كان (بالأهرام) فى سنته الأولى سنة ١٨٧٦م (سنة ١٢٩٣هـ) وكان لا يزال يلتزم السجع فى أسلوبه، وسنه يومئذٍ كانت سبعة وعشرين عاماً .

● دخل امتحان العالمية فى سنة ١٨٧٧م (١٣ جمادى سنة ١٢٩٤هـ) ، ونالها من الدرجة الثانية ، وكانت سنه ثمانية وعشرين عاماً ، ولولا إصرار رئيس لجنة الإمتحان الشيخ محمد المهدي العباسى، شيخ الأزهر، على لجأحه ، لرسب، لأن بعض الأعضاء كانوا قد تواصلوا على إسقاطه ، لآرائه وصحبته لجمال الدين الأفغانى!

● واصل بعد تخرجه تدريس كتب المنطق، والكلام المشوب بالفلسفة فى الأزهر... وقد كان حتي قبل تخرجه يعيد على طلبة الأزهر إلقاء دروس الأفغانى فى منزله، والكتب التي يشرحها ويعلق عليها، فقرأ لهم (إيساغوجى) فى المنطق، (وشرح العقائد النسفية) لسعد التفتازانى، مع حواشيه، و(مقولات السجاعي بحاشية العطار) ، وغيرها.. وعقد فى بيته درساً شرح فيه لبعض الطلبة بعض المؤلفات الفكرية الحديثة والقدية، مثل: (التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوروبية) للوزير الفرنسى (فرانسوا جيزو)، تعريب الخواجه نعمة الله خورى، وقرظه فى (الأهرام) هو واستاذة الأفغانى. وكتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه.

● فى سنة ١٨٧٨م (أواخر سنة ١٢٩٥هـ) عين مدرساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم، فقرأ على طلابها مقدمة ابن خلدون، وألف لهم كتاباً، ضاعت أصوله، هو (علم الاجتماع والعمران)، وعين مدرساً للعلوم العربية فى مدرستى الألسن والادارة.

● اشترك مع استاذة الأفغانى فى التنظيمات السياسية السرية التى أنشأها الأفغانى بمصر، فدخل فى (الحزب الوطنى الحر) الذى كان شعاره (مصر للمصريين) - أى لا للأجانب ولا للشراكسة - والذى ضم الطلاب الوطنية المستتيرة من طبقات مصر فى ذلك الحين.

● أبرز أعماله الفكرية فى هذه المرحلة، بعد دروسه وتدريسه، مقالاته فى الصحف، وهى: (تقريظ جريدة الأهرام) و (الكتابة والقلم) و (العلوم الكلامية، والدعوة إلى العلوم العصرية)، وتقديم تقريظ الأفغانى لكتاب (التحفة الأدبية).. كما صاغ فى هذه المرحلة العديد من أثار أستاذه الأفغانى، مثل حاشيته على شرح الدوائى للعقائد العضدية، وفلسفة التربية، وفلسفة الصناعة، ورسالة الواردات ... وصاغ أيضاً الرسالة التى ترجمها على باشا مبارك، ونشرها بالأهرام بعنوان (المذهب الانسانى والمذهب العقلى الروحانى).

● وأهم قسمة تميز بها انشاءه عن إنشاء غيره - ممن صاغ لهم أفكارهم وأماليتهم - فى هذه المرحلة، هى السجع.. فلئذ كان يسجع عندما ينشئ، ويتخلى عنه عندما يصرخ أفكار وآمالى الآخرين لايسجعون.

-٤-

فى يوليو سنة ١٨٧٩م (سنة ١٢٩٦هـ). نفى الأفغانى من مصر ... وعزل الإمام من مناصب التدريس فى مدرستى دار العلوم والألسن ... وحددت إقامته بقريته (محلة نصر).

● في سنة ١٨٨٠م (أواسط سنة ١٢٩٧هـ) استصدر رياض باشا، ناظر النظار، عفواً من الخديوى توفيق عن الإمام، واستدعاه من قريته وعينه محرراً ثالثاً في (الوقائع المصرية) فاستهل كتابته بها في ١٩ يوليو سنة ١٨٨٠م، وفي ٩ أكتوبر من نفس العام عين رئيساً لتحريرها (محرراً أولاً للصحيفة العربية الرسمية) ، وتولى مسؤولية الرقابة على المطبوعات.

● في ٢٨ مارس سنة ١٨٨١م (٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨هـ) أنشئ المجلس الأعلى للمعارف العمومية، وعين الإمام عضواً فيه.

● في هذه الفترة أبعد عن الاشتغال بالتدريس ، وعمل بالصحافة والسياسة .. ولذلك برز اختلاقه عن الأفغانى في وسيلة النهضة بالشرق والشرقيين (فهر عندما يدرس لا يختلف عن الأفغانى إلّا في درجة الميل الى الفلسفة .. ولكن عندما يعمل بالسياسة العليا والمباشرة يبدو الفرق بينهما واضحاً .. فرق المصلح من الثورى)

● انضم مع الحزب الوطنى الحر الى العربيين بعد مظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م. . . .

● ثم ألقى بكل قواه في الثورة بعد المذكرة الثنائية الانجليزية - الفرنسية الى مصر في يناير سنة ١٨٨٢م عندما تهددت الأخطار الأجنبية استقلال مصر. وظل في مكانه من المسؤولية والقيادة مع الشوار حتى هزيمة الثورة في سبتمبر سنة ١٨٨٢م.

● بعد هزيمة الثورة سجن ثلاثة أشهر... ثم حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات بدأت في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢م. ولكنها امتدت إلى مايقرب من ست سنوات.

● أبرز أعماله الفكرية في هذه المرحلة، هي مقالاته. وأغلبها نشر في (الوقائع المصرية) مثل: (عيد مصر ومطلع سعادتها) و (حاجة الإنسان إلى الزواج) و (حكم الشريعة في تعدد الزوجات) و (حكومتنا والجمعيات الخيرية) و (حب الفقر أو سفه الفلاح) و (إبطال البدع من نظارة الأوقاف العمومية) وغيرها وأيضاً (ترجمته للبارودي) و (برنامج الحزب الوطني الحر) و (دفاع عن حكومة الثورة) و (مفكرة الأحداث العرابية) و كتاباته، من السجن شعراً ونثراً بعد هزيمة الثورة ... الخ .. الخ ..

- ٥ -

ذهبت إلى (بيروت) منفياً في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢م (١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ) ، وكانت سنة يومئذ أربعة وثلاثين عاماً ، فأقام بها نحو عام ، حتى دعاه أستاذه الأفغانى إلى اللحاق به في باريس في أواخر سنة ١٨٨٣م (٥) .

● من حجرة صغيرة متواضعة فوق سطح أحد منازل باريس أخذ يعمل مع الأفغانى في إخراج جريدة (العروة الوثقى) ، لسان حال جمعية (العروة الوثقى) السرية التى قام بتنظيمها في بلاد الشرق، وخاصة مصر والهند .. فصدر منها ثمانية عشر عدداً ، أولها في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤م سن (١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ) وآخرها في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٢٦ من ذى الحجة ١٣٠١ هـ) وكان عمله في هذه الجريدة عمل (المحرر الأول) (رئيس التحرير).

● شغل في تنظيم (العروة الوثقى) السرى منصب نائب الرئيس (الأفغانى) .. ومارس العمل التنظيمى السرى .. وتنقل بهذه

(٥) يخطئ الأستاذ العقاد فيحدد سنة ١٨٨٤م تاريخاً لهذه الرحلة .

الصفة فى بلاد كثيرة، بعضها فى أوروبا، وبعضها فى الشرق .. وكانت كثير من رحلاته هذه سرية . . ودخل مصر فى هذه الفترة سراً (سنة ١٨٨٤م) أثناء اشتداد ثورة المهدي فى السودان ، وياشر قيادة عمل الجمعية السرية (٦) . . وكتب فى هذه الفترة عدداً من الرسائل السرية الى بعض فروع التنظيم.

● زار (لندن) داعياً لوجوب جلاء الانجليز عن مصر ، والتقى بوزير الحربية الانجليزى ووجوه البرلمان والصحافة والرأى العام.

● بعد توقف (العروة الوثقى) ، وبأسه من العمل السياسى المباشر كوسيلة لنهضة الشرق، غادر باريس إلى تونس ، ومنها إلى بيروت سنة ١٨٨٥م ، على أمل العودة إلى مصر ثانية.

● فى هذه الفترة أسس جمعية سرية للتقريب بين الأديان. شارك فيها عدد من رجال الدين المستنيرين ممن ينتمون إلى الأديان السماوية الثلاثة .. وفى بيروت مارس العمل الثقافى والتربوى والفكرى، إلى جانب قليل من العمل السياسى المباشر بحكم الصلات التى كانت لاتزال قائمة بينه وبين الأفغانى وتنظيم العروة الوثقى .

● من مقالاته السياسية التى كتبها ببيروت: (رسالة للسير صمويل بيكر فى السودان ومصر وانجلترا) ، (ومصر وجريدة اللجنة)، و (مراسلات) ، و (مصر والمحاكم الأهلية) ، وبعض الرسائل لعدد من الساسة والوجهاء. ومنها أرسل بعض آراء الأفغانى وتنظيم العروة الوثقى فى السياسة الشرقية فنشرت، دون توقيع، فى (الأهرام) بالاسكندرية ، وفى نشاطه السياسى هذا كان ملتزماً بخط العروة الوثقى فى العداء الصريح والمباشر للانجليز.

● ومن مقالاته الاجتماعية فى هذه الفترة مقال (الانتقاد) الذى كتبه فى مجلة (ثمرات الفنون).

(٦) هذه الحقيقة تذكر للمرة الأولى فى التاريخ للأستاذ الإمام ، أنظر الجزء الأول من أعماله الكاملة ص ٦٠٦ ، ٦١٨ .

● برزت في بيروت جهوده التربوية وأعماله الثقافية والفكرية .
 . فكتب، (لائحة إصلاح التعليم العثماني) و (لائحة إصلاح القطر
 السوري)، وشرع في كتابة (لائحة إصلاح التربية في مصر) ...
 كما شرع في تحقيق كتب التراث العربي الإسلامي ، كرائد
 للمحققين العرب في العصر الحديث، فحقق وشرح (مقامات بديع
 الزمان الهمذاني)، (ونهج البلاغة)، والتزم في التحقيق منهجاً
 علمياً بعد ذلك الدكتور طه حسين في كتابه (في الشعر
 الجاهلي).

● كما أتم في بيروت كذلك ترجمة (رسالة الرد على الدهريين)
 للأفغاني ، عن الفارسية، بمساعدة تابع الأفغاني (عارف أفندي أبو
 تراب)، وصدرها بترجمة هامة لأستاذه الأفغاني .

● اشتغل بالتدريس في (المدرسة السلطانية) ببيروت سنة
 ١٨٨٦م (سنة ١٣٠٣ هـ) فانتقل بها من مدرسة شبه ابتدائية إلى
 مدرسة شبه عالية ... ومن الكتب التي شرحها فيها (نهج
 البلاغة) و (ديوان الحماسة) وإشارات ابن سينا، وكتاب التهذيب،
 ومجلة الأحكام العدلية العثمانية . . كما ألقى فيها دروس
 التوحيد التي تحولت بعد عودته لمصر إلى (رسالة التوحيد) .

● بدأ تفسير القرآن بمنهج عقلى حديث لم يسبق في الشرق
 منذ يقظته، طبق فيه منهج أستاذه الأفغاني ، وكان ذلك بالمسجد
 العمرى ببيروت، فكان يعقد درسه به ثلاث ليال في الأسبوع ،
 واجتذب درسه هذا الحركة الفكرية والثقافية هناك، حتى أن
 المستنيرين من المسيحيين كانوا يجتمعون على باب المسجد لسماعه
 ولما حالت ضوضاء الشارع دون سماعهم له طلبوا منه السماح لهم
 بدخول المسجد لتابعة حديثه، فسمح لهم بالوقوف داخل المسجد إلى

جوار الباب ١٩ ... واستمرت دروسه هذه فى التفسير حوالى الستين.
ولم يسجل لنا منها شىء... ..

● فى بيروت تزوج من زوجته الثانية، بعد أن توفيت زوجته الأولى.

● سعى من بيروت لدى أصدقائه كى يطلبوا له العفو ليعود إلى مصر .. وكان تلميذه سعد زغلول يلح على الأميرة نازلى هانم فاضل كى تستخدم نفوذها عند كرومر للعفو عن الإمام .. وسعى لذلك أيضاً الشيخ على اللبى والغازى أحمد مختار باشا، وكيل السلطان بالقاهرة .. وعندما اقتنع كرومر بأن الإمام لن يعمل بالسياسة، وأنه سيقصر نشاطه على العمل التربوى والثقافى والفكرى استخدم نفوذه فى استصدار العفو من الحديوى توفيق، فعاد الأستاذ الإمام إلى مصر فى سنة ١٨٨٩م (سنة ١٣٠٦هـ) .

- ٦ -

عندما عاد الإمام إلى مصر اتخذ لنفسه سكناً فى شارع (الشيخ ربحان) ، بالقرب من قصر عابدين . ولما زاره صديقه عبد العزيز أفندى سلطان طرابلس، وسأله عن سر اختياره هذا المكان للسكنى ، قال له : (حتى ناطح عابدين مناطحة) ١٤.

● كان يدرك أن الود المفقود بينه وبين الحديوى توفيق سيظل مفقوداً، فسلك طريق العلاقات المباشرة مع اللورد كرومر، وقدم إليه ، مباشرة ، اللائحة التى كتبها لإصلاح التربية والتعليم بمصر.

أراد أن يمارس عمله المحبب، وهو التدريس ، وخاصة في دار العلوم... فرفض الخديوى توفيق، حتى لا يتيح له فرصة تربية الأجيال الجديدة على أساس من آرائه وأفكاره، وعينه الخديوى سنة ١٨٨٩ م ، قاضياً بمحكمة (بنها) كى يبعده عن القاهرة وعن التدريس، فقبل على مضض ، ثم انتقل إلى محكمة الزقازيق ، ثم محكمة عابدين، ثم ارتقى إلى منصب مستشار فى محكمة الاستئناف سنة ١٨٩١م.

❶ فى هذه الفترة دارت مراسلات قليلة بينه وبين الأفغانى فى الآستانة بعد أن استقر بها سنة ١٨٩٢م . . . ولكن موقف الإمام من السياسة والانجليز جلب عليه غضب أستاذه..

❷ بعد موت الخديوى توفيق، وتولى الخديوى عباس حلمى الثانى السلطة . قامت فترة من الوفاق بين الأستاذ الإمام وبين العرش، وكان أساسها أن الإمام اقنع الخديوى بأن يعاونه في العمل لإصلاح المؤسسات التعليمية والتربوية والاجتماعية الثلاث : الأزهر والأوقاف، والمحاكم الشرعية... وفي سنة ١٨٩٥م (٦ رجب سنة ١٣١٢هـ) تشكل مجلس إدارة الأزهر، برئاسة الشيخ حسونة النواوى، ودخل فيه الأستاذ الإمام والشيخ عبد الكريم سلمان ممثلين للحكومة، وكان حريصاً على أن يسير هذا المجلس وفق لاتحته وقوانينه، لا بمشيئة الخديوى وحاشيته، وقال للخديوى يوماً ، أمام أعضاء المجلس: (إن مجلس إدارة الأزهر لا يعرف لسموكم أمراً

عليه إلا بهذا لقانون الذى بين يديه، دون الأوامر الشفوية التى يبلغها عنكم من لا يثق به المجلس، لمخالفته قانونكم!). اصطدمت سياسة الرفاق بينه وبين الخديو عباس يعاملين أساسيين :

أولهما: مذهب الإمام المعتدل فى سياسته إزاء الإنجليز، والذى جعله يهادن كرور وسلطة الاحتلال، فلا يعتبر معركته المباشرة ضدهم، وإنما ضد العقبات التى تحول دون إصلاح الأزهر، والأوقاف، والمحاكم الشرعية، والتربية والتعليم. وهو الموقف الذى رضى عنه الإنجليز ورحبوا به، لأنه يتيح لهم الهدوء والاستقرار.

ثانيهما: معارضة الأمتاذ الإمام وحسن باشا عاصم لمطامع الخديوى فى أراضى الأوقاف، عندما أراد استبدال بعض أراضيه بأخرى من أراضى الأوقاف.. وبذلك انتهت فترة الوفاق هذه الى مرحلة من الحذر والعداء، استمرت من سنة ١٩٠٢م (سنة ١٣١٨).

● فى ٣ يونيو سنة ١٨٩٩م (٢٤ محرم سنة ١٣١٧هـ) عين فى منصب مفتى الديار المصرية وتبعاً لهذا المنصب أصبح عضواً فى مجلس الأوقاف الأعلى، فسعى إلى إصلاحها، وإصلاح المساجد بوضع وتطبيق اللائحة التى ضمنها أفكاره لإصلاح هذا المرفق الإسلامى الهام. ● وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩م (١٨ صفر سنة ١٣١٧هـ) عين عضواً فى مجلس شورى القوانين.

● فى سنة ١٩٠٠م (سنة ١٣١٨هـ) أسس (جمعية إحياء العلوم العربية) فحققت ونشرت عدداً من آثار التراث العربى الإسلامى الفكرية الهامة. وشارك الإمام فى عمل هذه الجمعية باستحضار المخطوطات، واستكمال نسخها، ومراسلة الملوك والسلاطين والقضاة لهذا الغرض، ومقابلة النسخ المخطوطة والشرح والتعليق على هذه الآثار الفكرية الهامة.

● فى هذه الفترة من حياته سافر إلى خارج مصر عدة مرات . إلى الشام ... وإلى أوروبا أكثر من مرة، أشهرها رحلته إليها سنة ١٩٠٣م (سنة ١٣٢١ هـ) ، ومنها عرج علي تونس والجزائر ، ثم صقلية وإيطاليا ... كما سافر إلى السودان فى المدة من ١٨ حتى ٣١ يناير سنة ١٩٠٥م.

● بدأ فى هذه المرحلة يلقى دروسه فى تفسير القرآن الكريم بالجامع الأزهر من يونيو سنة ١٨٩٩م (شهر المحرم سنة ١٣١٧ هـ) . واستمر فى إلقائها نحو ست سنوات .

● وكان الشيخ رشيد رضا يدون ملخصاً ، فى الدرس، لهذا التفسير، وبعد عام من بدئه أخذت تنشره مجلة (النار) (عدد محرم سنة ١٣١٨ هـ مايو سنة ١٩٠٠م) ، واستمر ينشر فيها شهرياً حتى عددها الخامس من سنتها الخامسة عشرة (٣٠ جمادى الأولى سنة ١٣٣٠ هـ ، ١٧ مايو سنة ١٩١٢م) وبعد ذلك أخذ رشيد رضا يواصل التفسير منفرداً بالعمل فيه.

● من أبرز أعماله الفكرية فى هذه المرحلة: فتاويه، وأحاديثه للصحف والمجلات، و (رسالة التوحيد) ، وتحقيق وشرح (البصائر النصيرية للطوسى)، وتحقيق وشرح (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) للجرجاني، و (الرد على هانوتو)، ومقالات الاضطهاد فى النصرانية والاسلام - (الاسلام والنصرانية ، بين العلم والمدنية)، التى رد بها على فرج أنطون سنة ١٩٠٢م ، (وتقرير إصلاح المحاكم الشرعية) سنة ١٨٩٩م ... والفصول التى شرع بها الترجمة لحياته، ومقالات (المستبد العادل)، و (الرجل الكبير فى الشرق)، و(آثار محمد على فى مصر)...ومجموعة ملاحظاته

وآرائه حول الثورة العربية، سواء منها ما كتبه فى مشروعه لتاريخها بطلب من الخديوى عباس، أو ما كتب لصديقه القديم (بلنت) ... وأيضاً ترجمته لكتاب (التربية) هربوت سبنسر عن الفرنسية، التى تعلمها فى هذه المرحلة من حياته وكذلك وصيته التربوية التى أملاها بالفرنسيه فى مرضه الأخير على (الكونت دى جريفل)، فنشرها فى كتابه (مصر الحديثة).

● فى مارس سنة ١٩٠٥م (محرم سنة ١٣٢٢هـ) استقال من مجلس إدارة الأزهر احتجاجاً على مؤامرات الخديوى عباس التى حال بها دون سير الإصلاح فى هذه الجامعة الكبيرة .

● وفى الساعة الخامسة من مساء يوم ١١ يوليو سنة ١٩٠٥م (٧ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣هـ) توفى الاستاذ الإمام بالأسكندرية عن سبع وخمسين عاماً... وعن ثلاث بنات ... وعن حياة فكرية خصبة .. وجهود فى التربية والإصلاح... ومواقف تجسد عظمة الإنسان لاقوت ا.

عن الرسالة

- أن كتاباً يكون موضوعه:
- الله ، جلّ جلاله ... وصفاته .. وأفعاله. . .
- والإنسان ... ومكانته وأفعاله. . .

❶ والرسالة والنبوة - عامة - ولمحمد بن عبد الله ﷺ على وجه الخصوص . .

❷ والقرآن الكريم . . معجزة الإسلام ورسوله. . .

❸ ثم . . هذه العقائد والأصول، كما تبلورت في الشريعة الإسلامية - وهي رسالة الله الدينية إلى محمد وأمة . . ورسالة العرب الحضارية إلى الإنسانية جمعاء ١ .

ان كتابا يكون هذا موضوعه لهو على جانب عظيم من الخطر والأهمية ... وهذا هو موضوع (رسالة التوحيد) ١٢ .

وعندما يكون كاتب (رسالة التوحيد) هذه هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ) / (١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) ، أبرز أعلام مدرسة التجديد الديني في عصرنا الحديث. فإن هذه (الرسالة) تزداد أهمية . وموضوعها يتزايد خطراً ١٣ .

فقبل عصر يقظتنا وتنويرنا ونهضتنا، التي أسهمت مدرسة التجديد الديني هذه في صنعه بالنصيب الأوفى، كانت عقائد هذه الأمة وأصول دينها قد رانت عليها الجهالات والبدع والخرافات . . وتحولت أغلب كتب (التوحيد) خلال العصر (الملوكي - العثماني) إلى (متون) و (حواشي) تمتلئ بالجدل اللفظي العقيم ، وتفرق عقل هذه الأمة في طوفان من القصص الخرافية والاسرائيليات ١٤ .

ثم كانت (التعليقات) التي أملاها رائد مدرسة التجديد الديني جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ) / (١٨٩٧-١٨٣٨ م) على تلاميذه . . وهي (التعليقات) التي قدمها

على (شرح الدواني^(١) للعقائد العضدية^[٢] .. كانت هذه التعليقات أول نص حديث في الإلهيات الإسلامية ، ينظر في عقائد الأمة بعقل مستنير، ويقدم لها - مع النقد والإضافة - فكر فلاسفتها الإلهيين، الذين صنعوا بآبائهم عصر الازدهار الحضارى للعرب والمسلمين. . لكن هذه (التعليقات) قد ظلت.. لعمتها الشديد وتخصصها الأشد - كتاباً (للخاصة) من المفكرين المتفلسفين^[٣] ١. .

ومرت السنوات. . وجمهور هذه الأمة وعامة مثقفيها يتطلعون الى كتاب في (الإلهيات) ، يصحح لهم العقيدة، ويحرر فيهم العقل، ويمثل في مكتبتهم رأى مدرسة التجديد الدينى فى أصول الدين وعقائده، حتى كانت هذه الرسالة - (رسالة التوحيد) - التى كتبها الاستاذ الإمام، لتنهض بهذا الدور الهام والعظيم. . فهذه الرسالة هى واحدة من أهم نصوص الأستاذ الإمام. . تلك النصوص التى اقتربت صفحاتها - فى (أعماله الكاملة) من الأربعة آلاف صفحة! . . وذلك لخطر موضوعها، وللمنهج التجديدى العقلانى المستنير الذى عالج الأستاذ الإمام به هذا الموضوع .. فموضوعها هو (علم التوحيد) ، وهو - كما يقول الامام: (ركن العلم الشديد)١. كما تتجلى فى

(١) جلال الدين الدواني (١٨٨٣-١٩٢٧هـ. ١٤١٢م) من فلاسفة الاسلام وقضاة فارس في عصره .. كتب بالفارسية إلى جانب العربية ، وترك شروحا على عدد من نصوص علم الكلام .

(٢) عضد الدين الايجي (٧٥٦-١٣٥٥م) من علماء الكلام والاصول واللفظة والبلغة والتاريخ ، وكتابه : (المواقف) أحد المراجع الشهيرة في علم الكلام
(٣) حققنا هذه (التعليقات) ونشرناها في الجزء الأول من الطبعة الجديدة (للاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى) بيروت سنة ١٩٧٩ .

أسلوبها خصائص أسلوب الأستاذ الإمام، كرائد في التجديد للغة هذه الأمة وأسلوب كتابتها، بعد عصر الركاقة والمحسنات اللفظية. الأمر الذي ييسرها للجمهور، ويجعلها - في ذات الوقت - زادا فكريا دسما وعميقا للخاصة من الباحثين والمفكرين! .. وبعبارة المؤلف فأسلوب (الرسالة) (لا يصعب تناوله، وإن لم يعهد تداوله؟! الأمر الذي يجعلها تلبي حاجة المقتصد، دون أن يستغنى عنها (المكائر) المتبحر في العقائد والإلهيات! ..

● وفي هذه الرسالة تبدو الروابط بين (العقائد) وبين (وظائفها) في واقع الإنسان .. فللألوهية دور عظيم في تحرير روح الانسان وعقله ... الأمر الذي جعل لهذا الانسان مكانة سامية في الاسلام، مكانة الخليفة عن الله، المدعو لأن يتخلق بأخلاق الله! . والموعود من ربه، إن هو صنع ذلك ، بأن يصبح ريانيا، أى مسيطرا، بالوعى، على قوانين حياته، حتى ليقول للشئ: كن فيكون!؟

● وفي هذه الرسالة تتجلى نصره الاسلام (للعقل) كى يهزم (التقليد) ، الذى قتل روح المبادرة والمخاطرة والإبداع في الأمة، حتى عاشت ليل عصورها المظلمة في ظل جهالة الممالك والعثمانيين! .. فالاسلام كما يقول الأستاذ الإمام: (قد انحنى على التقليد، وحمل عليه حملة بددت فيآلقه المتقلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة في المذارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم... لقد علا صوت الاسلام، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم!.. ولذلك أطلق الاسلام سلطان العقل من كل ماقيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، وردّه الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته، مع الخضوع لله وحده ...!)

● وفي هذه (الرسالة) يظهر الإسلام (برئاً) من تلك الكهانة التي جعلت الدين حرفة يحترفها قوم انتزعوا لأنفسهم سلطان الله، بل واحتكروا - ظالمين - هذا السلطان، ثم سمو أنفسهم (رجال الدين) .
يظهر الاسلام، في هذه (الرسالة) (برئاً) من هؤلاء (الوسطاء) بين الانسان وربه، بل و (عدوا) لهذه الوساطة وهؤلاء الوسطاء . فكما يقول الأستاذ الإمام : (لقد مال الإسلام على الرؤساء ، فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون، ووضعهم تحت أنظار مرموسيههم، يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون، لا بما يظنون ويتوهمون) . .

● وفي هذه (الرسالة) نرى الاسلام قد أنزل (الماضى) عن عرشه، الذي احتله بحكم أنه (ماض) فقط لاغير؟!.. فالذين يقدسون (الماضى) ، ويزداد تقديسهم له كلما أوغل في العتاقة والقدم، ليس موقفهم هذا من الاسلام فى شيء... وبعبارات الأستاذ الإمام : (.)
فلقد سجل الاسلام الحق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان.. وانما السابق واللاحق فى التمييز والفترة سيان، بل لللاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه؟!).

● وفي هذه (الرسالة) نرى أية كنوز يضعها الاسلام بين يدى أمته، لاقتا اليها بصرها وبصيرتها ، مهيبا بها أن تفتح هذه الكنوز الميسورة، وتستثمرها فى النهضة واللاحق، بل والسبق للآخرين! .
فإذا كان العقل، بنظر الاسلام، وبعبارات الأستاذ الإمام (هو) أفضل القوى الانسانية على الحقيقة؟!.. فإن (العقلانية الاسلامية) .

كما تجسدها فصول هذه (الرسالة) - تهيبى، للإنسان المسلم، (بمقتضى دينه، أمرين عظيمين، طالما حرم منهما ، وهما:
أ - استقلال الإرادة. .

ب - واستقلال الرأى والفكر . .

وبهما كانت إنسانيته 1 ، وبهما استعد لأن يبلغ من السعادة ما يهياه الله له ، بحكم القطرة التى فطر عليها).

ثم يعقب الأستاذ الإمام على ما يهيبه الإسلام للمسلم من استقلال فى الإرادة، والرأى والفكر... فيستشهد بأقوال حكماء الحضارة الغربية التى تعزو نشأة المدنية الأوروبية الى هذا الاستقلال! وكأنه بذلك يقول لنا: إن نقطة البدء، ومصدر الانطلاق لمن يريد انهاض الأمة وتقدمها هو الاسلام. . الاسلام كما يفهمه ويفقهه عقل المسلم المستنير، على النحو الذى تعرضه (رسالة التوحيد) 1. .

تلك (إشارات) على ما فى هذه (الرسالة) من أضواء تنير للمسلم عقله وطريقه. . وما بها من طاقات تدفع خطو هذه الأمة على درب تحررها العقلى وتقدمها الحضارى نحو الأمام 1. .

قالى القارى العربى والمسلم نقدم هذه الطبعة المحققة لـ (رسالة التوحيد) ، بعد أن قدمناها من قبل ضمن (الأعمال الكاملة) للأستاذ الإمام..

وعلى الله قصد السبيل .. فهو ولى العون والتوفيق. ...

دكتور

محمد حمادة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَهْنِئَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ
يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

(ويعد) .. فلما كنت في بيروت، من أعمال سوريا، أيام بعدى
عن مصر، عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية (١) ودعيت في سنة
١٣٠٣ (٢) لتدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية، ومنها علم
التوحيد، رأيت أن المختصرات في هذا الفن لا تأتى على الغرض من
إفادة التلاميذ، والمطولات تملو عن أفهامهم، والمتوسطات ألقت لزمن
غير زمانهم.

فرايت من الأثيق أن أملئ عليهم ما هو أمس بحالهم . فكانت
أمالى مختلفة ، تتغاير بتغاير طبقاتهم ، أقربها إلى كفاية الطالب ما
أملئ على الفرقة الأولى ، في أسلوب لا يصعب تناوله، وإن لم يعهد
تداوله، وسير منها إلى الطالب من غير نظر الاصححة الدليل، وإن

(١) الإشارة إلى حوادث الثورة العراقية سنة ١٨٨٢ .

(٢) المرافقة لسنة ١٨٨٥م .

جاء فى التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف، رامياً الى
الخلاف من مكان بعيد، حتى قد لا يدركه الا الرجل الرشيد.

غير أن تلك الآمالى لم تحفظ إلا فى دفاتر التلامذة، ولم
استبق لنفسى منها شيئاً، وعرض بعد ذلك ما استقدمنى إلى مصر
، وكان من تقدير الله أن أشتغل بغير التعليم، حتى أتى النسيان
على ما أمليت، وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت، الى أن خطر لى
من مدة أشهر خاطر العود الى ماتهواه نفسى ، ويصبو اليه عقلى
وحسى. وأن أشغل أوقات فراغى بمداولة شيء من علم التوحيد،
علما منى أنه ركن العلم الشديد.

فذكرت سابق العمل، وتعلق بمثله الأمل، ولكيلا انفق من
الزمن ما أنا فى أشد الحاجة إليه فى انشاء ما أرى التعويل عليه،
عزمت أن اكتب الى بعض التلامذة فأخبرنى أنه نسخ ما أملى على
الفرقة الأولى، فطلبته وقرأته، فإذا هو على مقربة مما أحب، قد
يحتاج إليه القاصر، وربما لا يستغنى عنه المكاثر، على اختصار فيه
مقصود، ووقوف عند حد من القول محدود، قد سلك فى العقائد
ملك السلف، ولم يعب فى سيره آراء الخلف، وبعد عن الخلاف بين
المذاهب، بعد محليه عن أعاصير المشاغب.

لكن وجدت فيه إيجازاً فى بعض المواضع، قد لا ينفلد منه
ذهن المطالع، وإغفالاً لبعض ما تمس الحاجة اليه، وزيادة عما يجب
فى مختصر مثله أن يقتصر عليه، فبسطة بعض عباراته، وحررت
ما غمض من مقدماته ،وزدت ما أغفل، وحذفت ما فضل، وتوكلت
على الله فى نشره، راجياً أن لا يكون فى قصره ما يعمل على
إغفال أمره، أو يفض من قدره، فما أحد بأصغر من أن يعين، ولا
بأكبر من أن يعان، والله وحده ولى الأمر وهو المستعان.

مقدمات

التوحيد:

علم يبحث فيه عن وجود الله ، وما يجب أن يثبت له من صفاته ، وما يجب أن ينفي عنه ، وعن الرسل ، لاثبات رسالتهم ، وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب اليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم.

أصل معنى التوحيد : اعتقاد أن الله واحد ، لا شريك له ، وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو اثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلقه الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون ، ومنتهى كل قصد. وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى ﷺ ، كما تشهد به آيات الكتاب العزيز ، وسيأتى بيانه .

وقد يسمى علم الكلام ، اما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون هى أن كلام الله المتلو حادث أو قديم ، واما لأن مبناه الدليل العقلى ، وأثره يظهر من كل متكلم فى كلامه ، وقلما يرجع فيه الى النقل ، اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ، ثم الإنتقال منها الى ما هو أشبه بالفرع عنها ، وإن كان أصلا لما يأتى بعدها ، وإما لأنه فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تنبيه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر ، وأبدل المنطق بالكلام للفرقة بينهما.

هذا النوع من العلم ، علم تقرير العقائد ، وبيان ما جاء فى النبوات ، كان معروفا عند الأمم قبل الاسلام ، ففى كل أمة كان القائلون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأيينه ، وكان البيان من أول وسانلهم الى ذلك ، لكنهم كانوا قلما يتحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى ، وبناء آرائهم وعقائدهم على مافى طبيعة الوجود أو مايشتمل عليه نظام الكون ، بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الإلزام بالعقائد ، وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض ، وكثيرا ماصرح الدين على لسان رؤسائه : أنه عدو العقل ، نتائجه ومقدماته ، فكان جل مافى علوم الكلام تأويل وتفسير وإدهاش بالمعجزات ، أو إلهاء بالخيالات ، يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية .

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجاً لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ، ولئن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه ، فترك الاستدلال على نبوة النبى ﷺ بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ، وحصر الدليل فى حال النبى ﷺ مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ، ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وتناول من مقام الألوهية ما أذن الله لنا وما أوجب علينا أن نعلم .

لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، إدعى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين ، وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض

الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الاحكام والإتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها ، لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه ، حتى أنه فى سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخليقة سنة لا تغيّر وقاعدة لا تتبدل ، فقال :

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (١) . وصرح : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢) . واعتضد بالدليل حتى فى باب الأدب .، فقال : ﴿ إِذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣) .

وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس ، على لسان نبي مرسل ، بتصريح لا يقبل التأويل ، وتقرر بين المسلمين كافة - الا من لائقة بعقله ولا بديته - إن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم بوجود الله ، وقدرته على إرسال الرسل ، وعلمه ، بما يوحى به اليهم ، وارادته لاختصاصهم برسالته ، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة ، والتصديق بالرسالة نفسها .

(١) الفتح: ٢٣ .

(٢) الرعد : ١١ .

(٣) فصلت : ٢٤ .

كما أجمعوا على أن الدين ان جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل.

جاء القرآن يصفُ اللهَ بصفات ، وان كانت أقرب الى التنزيه. بما وصف به في مخاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم ، أو في الجنس ، كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر ، وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها في الانسان كالاستواء على العرش ، وكالوجه واليدين ، ثم أفاض في القضاء السابق ، وفي الاختيار الممنوح للإنسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين . ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر في الثواب والعقاب الى مشيئة الله ، وأمثال ذلك مما لاحاجة الى بيانه في هذه المقدمة.

فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه التشابهات في النقل فسح مجالاً للناظرين ، خصوصاً ودعوة الدين الى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط ، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلاغلو في التجريد ولا دنو في التحديد (٤) .

(٤) التجريد هنا يراد به الذهاب في تنزيه الله عن مشابهة الحوادث . وعن الإتصاف بالصفات الزائدة على الذات ، الى الحد الذي يصبح فيه تصور الذات الإلهية كفكرة مجردة عن الصفات والتحديدات ... ونحن نجد هذا التجريد عند المعتزلة وكل من وافقهم في التنزيه ، وبالذات عند الفلاسفة الالهييين . فابن رشد مثلاً يتصور الذات الإلهية عقلاً للعالم ، وعلماً محضاً ونظماً هو أشبه بالقوانين التي تحكم الوجود وتحفظه وتهيمن عليه . . . أنظر تصوره للذات الإلهية في دراستنا " المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد : طبعة دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٧١ م . أما التحديد لمإننا نجد بدرجات متفاوتة عند المشبهة والمجسمة وبعض القائلين بالحلول والاتحاد.

مضى زمن النبى ، ﷺ ، وهو المرجع فى الحيرة والسراج فى ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر فى مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء ، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم يتلونها (٥) بالبحث فى مبانى عقائدهم . وما كان من اختلاف قليل رد اليهما ، وقضى الأمر فيه بحكمهما ، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ، ان كانت حاجة الى الاستشارة ، وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقائد ، ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون اشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوهم التشبيه ، ويرون أن له معنى غير ما يفهمه ظاهر اللفظ .

كان الأمر على ذلك الى أن حدث ما حدث فى عهد الخليفة الثالث ، وأفضى الى قتله ، هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الاسلام بأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها ، وبقي القرآن قائماً على صراطه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦) ، وفتح للناس باب لتعدى الحدود التى حدّها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى ، وأشعر

(٥) يتحذرونها ويحصرنها .

(٦) الحجر : ٩ .

الأمر قلوب العامة ان شهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم ، وغلب الغضب على كثير من الغالين فى دينهم وتغلب هؤلاء ، وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون.

وكان من العاملين فى تلك الفتنة عبد الله بن سبأ ، يهودى أسلم وغلى فى حب على كرم الله وجهه ، حتى زعم أن الله حل فيه ، وأخذ يدعو الى أنه الأحق بالخلافة ، وطعن على عثمان ، فنفاه الى مصر ، فوجد فيها أعوانا على فتنته ، الى أن كان ماكان مما ذكرنا ، ثم ظهر بمذهبه فى عهد على فنفاه الى المدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده (٧) .

توالت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ماعقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الأمويين ، غير أن بناء الجماعة قد انصدع ، وانقصمت عرى الوحدة

(٧) من الباحثين من يشكك فى وجود شخصية عبد الله بن سبأ أصلاً أو على الأقل يرى أن الناس قد اتخذوا منها مشجياً يملقون عليه الأخطاء حتى لا تلحق الشبهات بشخصيات عزيزة على القلوب من صحابة رسول الله ، وحتى لا ترد المسيات الى أسبابها الحقيقية ، تلك الأسباب التى أثمرت أحداث عهد عثمان بن عفان . انظر فى ذلك د. طه حسين " الفتنة الكبرى " ج ١ . ٢ طبعة دار المعارف . القاهرة .

بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة وأخذ الأحزاب فى تأييد آرائهم ، كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وكانت نشأة الإختراع فى الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل . فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتزلين ، وغلا الخوارج فى عهد مروان الأول (٨) فكفروا من عداهم ، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتكفيرهم لمن خالفهم زمناً طويلاً إلى أن تضعض أمرهم على يد المهلب بن أبى صفرة (٩) وانتشرت فارتهم فى بلاد المغرب فأشعلوا فيها الفتنة ، وبقيت منهم بقية إلى اليوم فى أطراف أفريقيا وناحية جزيرة العرب .

وغلا بعض الشيعة فرفعوا علياً أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو مايقرب منه ، وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد .

غير أن شيئاً من ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الإسلامية ، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتناهية عن مشار النزاع ، وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاوهم ، والمصريين والافريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع

(٨) هو مروان بن الحكم الأموى ، حكم بعد معاوية الثانى (٦٨٣-٦٨٥م)

(٩) من قواد الحجاج بن يوسف الثقفى ، تمكن من هزعة الخوارج الأزارقة بقيادة قطرى بن الفجاءة الذين كانوا قد امتلكوا " كرمات " وكانت الموقعة الفاصلة سنة ٦٩٨م أو سنة ٦٩٩م .

عن سلطان الاسلام ، وآن لهم أن يشتغلوا فى أصول العقائد والأحكام بما هداهم إليه سير القرآن اشتغالاً يحرس فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يفض فيه من نظر الفكر، ووجد من أهل الإخلاص من انتدب نفسه للنظر فى العلم والقيام بفريضة التعليم. ومن أشهرهم الحسن البصرى (١٠) ، فكان له مجلس للتعليم والإفادة فى البصرة يجتئع اليه الطالبون من كل صوب وتمتحن فيه المسائل من كل نوع .

وكان قد التحف بالإسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه ، فثارت الشبهات بعد ماهيت على الناس أعاصير الفتن ، واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر ، وشارك الدخلاء من حق لهم السبق ، من العرفاء ، وبدت رؤوس المشايق تعلو بين المسلمين .

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الانسان بإرادته وأفعاله الإختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة ، ولم

(١٠) هو الحسن بن أبى الحسن (٢١-١١٠هـ ، ٧٢٨-٦٤١م) واسم أبيه يسار ، وكان أبوه من سبى "ميسان" وهى "كورة" بين "البصرة" و"واسط" . ، وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت تعطيه نديها فى غياب أمه وهو رضيع ، أنظر (تهذيب التهذيب) لابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ٢٧٠ طبعة حيدو أهاد بالهند سنة ١٣٢٥هـ.

يتب : اختلف فيها وأصل بن عطاء (١١) مع أستاذه الحسن البصرى واعتزله ، يعلم أصولاً لم يكن أخذها عنه ، غير أن كثيراً من السلف ومنهم الحسن - على قول - كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وإرادته (١٢) ، وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا الى أن الانسان فى عمله الارادى كأغصان الشجرة فى حركاتها الاضطرابية . كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لا يحفلون بالأمر ، ولا يعنون برد الناس الى أصل ، وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل الى ماشاء .

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين ، بل امتد الى إثبات صفات المعانى للذات الإلهية أو نفيها عنها ، وإلى تقدير سلطة العقل فى معرفة الأحكام الدينية حتى ما كان منها فروعاً وعبادات (غلوا فى

(١١) هو أبو حنيفة وأصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١هـ ٦٩٩ - ٧٤٩م) الملقب بالغزال ، من الموالى ، ولد بالمدينة ، ثم ذهب الى البصرة ، أخذ القول بحرية الإنسان واختياره عن معبد الجهنى ، وأخذ القول بالتنزيه عن جهم بن صفوان ، وهو أول من تبلورت على يديه حركة المعتزلة التى ورثت تراث القائلين بالعدل والتوحيد . انظر : المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٧ - ٢٠ طبعة الهند سنة ١٣١٦هـ .

(١٢) تشهد بذلك رسالة له فى " القدر " بعث بها الى عبد الملك بن مروان . ولقد قمنا بتحقيقها ونشرها ضمن الجزء الأول من " رسائل العدل والتوحيد " طبعة " دار الشروق " فى القاهرة ، وفى الخلاف حول موقفه من هذه القضية انظر " تهذيب التهذيب " ج ٢ ص ٢٧٠ و " المعارف " لابن قتيبة ٤٤٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠م .

تأييد خطة القرآن) ، وأتخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى ، على ماسبق بيانه ، ثم غالى آخرون ، وهم الأقلون ، قمحوها بالمرة ، وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب ، عنادا للأولين (١٣) وكانت الآراء فى الخلاف والخلافة تسير مع الآراء فى العقائد كأنها مبنى من مبنى الاعتقاد الاسلامى .

تفرقت السبل بأتباع "واصل" ، وتناولوا من كتب اليونان مالا يقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبتته العلم بدون تفرقة بين ماكان منه راجعا الى أوليات العقل وماكان سرايا فى نظر الهم ، فخلطوا بمعارف الدين مالا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر ، ولجوا فى ذلك حتى ضارت شيعهم تعد بالعشرات ، أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة ، فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلون معتصمين بقوة اليقين وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين .

عرف الأولون من العباسيين ماكان من الفرس فى إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على طلب الانتصار فيهم ، وأعدو لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم ، فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا

(١٣) الإشارة الى " الظاهرية " و " مدرسة " أهل الحديث " الذين أنكروا التأويل

واعمال العقل فيما وراء ظاهر النصوص .

من الدين فى شيء . وكان فيهم " المانوية " (١٤) و " البيزدية " (١٥) ومن لادين له وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من أفكارهم ، ويشيرون بخالهم ويمقابلهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم ، فظهر الإلحاد وتطلعت رؤوس الزندقة حتى صدر أمر " المنصور (١٦) بوضع كتب لكشف شبهاتهم وإبطال مزاعمهم .

فيمّا حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبأ لم يتكامل نموه وبناء لم يتشامخ علوه ، وبدأ كما انتهى مشوا بمبادئ النظر فى الكائنات جرياً على ماسه القرآن من ذلك .

حدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته (١٧) ، وانتصر للأولى جمع من خلفاء العباسيين ، وأمسك عن القول ، أو صرح بالأولية عدد

(١٤) ويقال لهم الثورية ، وهم القائلون بالنور والنظمية ويقدمها واستقلالها ، وتبيهم " مانى " الذى ظهر فى عهد " سابورين أردشير بن بابك " . وهم فرق متعددة . انظر : القاضى عبد الجبار " المغنى فى أبواب التوحيد والعدل " ج ٥ ص ٧٠-٧١ .
(١٥) لعلها : المزدقية ، وهى فرقة من فرق الثورية . انظر المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحات .

(١٦) المزنس الحقيقى للدولة العباسية حكم من سنة ٧٥٤م حتى سنة ٧٧٥م .

(١٧) كان ذلك فى عهد المأمون العباسى سنة ٢١٨هـ .

غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة أو المتعفين عن النطق بما فيه مجازاة البدعة ، وأهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى ، وسفكت فيه دماء بغير حق ، وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين . على هذا كان النزاع بين ماتطرف من نظر العقل وماتوسط أو غلام الاستمساك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع ، ماتعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده ، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض الترويض (١٨) عليه .

وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهر بين ، طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحاقهم (١٩) بالاسلام ، وأفرطوا في التأويل ، وحولوا كل عمل ظاهر الى سر باطن ، وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بعد الخطأ عن الصواب وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ، ولهم أسماء آخر تعرف في التاريخ ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين ، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة.

(١٨) بمعنى ترويض النفس وتعويدها وتطويعها عليه.

(١٩) يمكن أن تقرأ التحاقهم . بالثاقف ، والتحافهم ، بالفاء ، على معنى أنهم لم يؤمنوا به كما يجب أن يكون الإيمان .

مع اتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم
كان أمر الخلاف بينهم جللا ، وكانت الأيام بينهم دولاً ولا يمنع ذلك من
أخذ بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه الى أن جاء الشيخ
أبو الحسن الأشعرى (٢٠) فى أوائل القرن الرابع ، وسلك مسلكه
المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر
المعقائد على أصول النظر ، وارتاب فى أمره الأولون ، وطعن كثير
منهم على عقيدته ، وكفروه الحنابلة واستباحوا دمه ، ونصره جماعة من
أكابر العلماء ، كإمام الحرمين (٢١) ، والاسفرايينى (٢٢) ، وأبى بكر
الباقلانى (٢٣) وغيرهم ، وسموا رأيهم بمذهب أهل السنة والجماعة ،
فانهزم من بين أيدي هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوة الواقفين عند

(٢٠) (٢٠٤٢٦٠-٨٧٣هـ-٩٢٥م) ، ولد بالبصرة ، وتولى ببغداد ، وكان
شافعياً فى المذهب الفقهى ، وفى الكلام كان معتزلياً ثم خرج على المعتزلة ومن أهم
كتبه " الإبانة عن أصول الديانة " و " مقالات الاسلاميين " . انظر دائرة المعارف
الاسلامية .

(٢١) هو أبو المعالى عبد الملك بن أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى .
الفقيه الشافعى ، وهو أستاذ الفزائى ، ونسبته الى " جوين " إحدى نواحي " نيسابور "
، توفى سنة ٤٧٨هـ .

(٢٢) المتوفى سنة ٤١٨هـ - ١٠٢٧م

(٢٣) المتوفى سنة ٤٠٣هـ - ١٠١٣م

الظواهر ، وقوة الغالين فى الجرى خلف ماترينه الخواطر ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد قرنين إلا فئات قليلة فى أطراف البلاد الإسلامية .

غير أن الناصرين لمذهب الأشعرى ، بعد تقريرهم مابنى رأيه عليه من نواميس الكون ، أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدى إليه من عقائد الإيمان ذهابا منهم إلى أن عدم الدليل يؤدى الى عدم المدلول .

ومضى الأمر على ذلك الى أن جاء الإمام الغزالى (٢٤) والامام الرازى (٢٥) ومن أخذ مأخذهم ، فخالقوهم فى ذلك ، وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلاوجه للحجر فى الاستدلال.

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراعا من الفكر المحض ، ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة ، إلا تحصيل العلم والوفاء بما تنفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن ييلقوا من مطالبهم ماشاءوا ، وكان الجمهور من أهل الدين يكتفهم

(٢٤) ١٠٥٨ - ١١١١م أشهر من أن يعرف .

(٢٥) المراد فخر الدين الرازى ، وهو أبو الفضل محمد بن عمر بن الحسين . المعروف بابن الخطيب ، ولد بمدينة الرى سنة ٥٤٤ هـ أو سنة ٥٤٣ هـ. وتوفى سنة ٦٠٦ هـ .

بحمايته ويدع لهم من إطلاق الإرادة ما يتمتعون به فى تحصيل لذة عقولهم ، وإفادة الصناعة ، وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة فى ضمائر الكون ، مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا فى قوله : ﴿خلق لكم ما فى الأرض جميعا﴾ (٢٦) ، إذ لم يستثن من ذلك ظاهراً ولا خفياً ، وما كان عاقل من عقلاء المسلمين لياخذ عليهم الطريق أو يضع العقبات فى سبيلهم الى ما هدوا إليه ، بعدما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهى اليه أمر السعادة والتميز بين الحق والباطل والضر والنافع ، وبعد ماصح من قوله عليه السلام : ﴿أنتم أعلم بشؤون دنياكم﴾ وبعد ما سن لنا فى غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء (٢٧) .

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم .

الأول : الإعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصا عن أرسطو وأفلاطون ، ووجد أن اللذة فى تقليدها لبادىء الأمر .

(٢٦) البقرة : ٢٦ .

(٢٧) الإشارة الى أخذ الرسول برأى بعض الصحابة فى مكان النزول بيد ، وعدوله عن رأيه هو فى المنزل الذى كان قد اختاره للنزول .

والثانى : روح الوقت (٢٨) ، وهو أشأم الأمرين ، زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين ، وأصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة ، فمال حماة العقائد عليهم ، وجاء الغزالى (٢٩) ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الأمور العامة أو أحكام الجواهر والأعراض ومذاهبهم فى المادة وتركيب الأجساد وجميع ما ظنّه المشتغلون بالكلام يس شيا من مبانى الدين. واشتدوا فى نقده ، وبالع المتأخرون منهم فى تأثيرهم حتى كاد يصل السير الى ماوراء الاعتدال . فسقطت منزلتهم من النفوس ونبتت لهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة ، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الإسلامى من سعيهم هذا هو السبب فى خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة فى كتب المتأخرين ، كما تراه فى كتب البيضاوى (٣٠) والعضد (٣١) وغيرهم . يجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعا علماً واحداً ، والذهاب بمقدماته مباحثه الى ما هو أقرب الى التقليد من النظر فوق العلم عن التقدم .

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر وفتكوا بما بقى من أثر العلم النظرى النابع من عيون الدين

(٢٨) أى روح العصر وطابعه .

(٢٩) الاشارة هنا الى كتابه " تهافت الفلاسفة " .

(٣٠) هو أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى ، المتوفى سنة ٧٩٩هـ .

(٣١) هو العضد الايجى ، صاحب الموسوعة الشهيرة " المواقف " ، تولى سنة

٧٥٠هـ سنة ١٣٥٥ م .

الاسلامى . فانهرفت الطريق بسالكها . ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين إلا محاور فى الألفاظ وتناظر فى الأساليب ، على أن ذلك فى قليل من الكتب إختارها الضعف وفضلها القصور .

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم . فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم . فوضعوا مالم يعد للإسلام قبل باحتماله ، غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ومن البعد عن يتابع الدين أعواناً فشدوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا فى التضليل والتكفير ، وغلوا فى ذلك حتى قلدا بعض من سبق من الأمم فى دعوى العداوة بين العلم والدين ، وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا اسلام ، والدين من وراء مايتوهمون ، والله . جل شأنه ، فوق ما يظنون وما يصفون . ولكن ماذا أصاب العامة فى عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم ، وبعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟؟ شر عظيم وخطب عميم .

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينشك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين ، وكيف عشت به فى نهاية أمره أيدي المفرقين ، حتى خرجوا به عن قصده ، وبعدوا به عن حده ، والذي علينا اعتقاده أن الدين الاسلامى دين توحيد فى العقائد لادين تفريق فى القواعد ، العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوى أركانه ، وماوراء ذلك فنزعات شياطين أو شهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه فى صوابه وخطئه .

الغاية من هذا العلم : القيام بفرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته ، الواجب ثبوتها له ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل ، لا استرسالاً مع التقليد ، حسبما أرشدنا إليه الكتاب ، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون ، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه ، تحصيلاً لليقين بما هدانا إليه ، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم ، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم الملى ، وحق ما قال ، فان التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل ، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الانسان .

اقسام العلوم

يقسمون العلوم الى ثلاثة أقسام :

يمكن لذاته . وواجب لذاته . ومستحيل لذاته .

ويعرفون المستحيل بما عدته لذاته من حيث هي ، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته ، وإنما يوجد لموجود ويعلم لعدم سبب وجوده ، وقد يعرض له الوجود والاستحالة لغيره ، وإطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من

المجاز ، فان المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم ، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه فى أحكامه ، وانما المراد ما يمكن الحكم عليه وان فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه .

حكم المستحيل

حكم المستحيل لذاته : أن لا يطرأ عليه وجود ، فان العدم من لوازم ماهيته من حيث هى ، فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هى عنها ، وهو يؤدى الى سلب الماهية عن نفسها بالبداية ، فالمستحيل لا يوجد ، فهو ليس بموجود قطعاً ، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا اليه ، فهو ليس بموجود حتى ولا فى الذهن.

احكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته : أن لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم إلا بسبب ، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته ، فنسبتهما الى ذاته على السواء ، فان ثبت له أحدهما بلاسبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداية.

ومن أحكامه أنه إن وجد يكون حادثاً لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب ، فإما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده ، والأول باطل ، وإلا لزم تقدم المحتاج على ما إليه الحاجة ، وهو

إبطال لمعنى الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها ، فيؤدى إلى خلاف المفروض ، والثانى كذلك ، والإلزام يساويهما فى رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثانى موثر ترجيحاً بلا مرجح ، وهو مما لايسوغه العقل ، على أن عليّة أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح ، وهو باطل بالبداهة ، فتعين الثالث ، وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه ، فيكون حادثاً ، إذ الحادث ماسبق وجزه بالعدم ، فكل ممكن حادث إن وجد.

الممكن لا يحتاج فى عدمه الى سبب وجودى ، لأنّ العدم سلب ، والسلب لا يحتاج الى إيجاد بداهة ، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه لعدم ما كان سبباً فى بقائه ، أمّا فى وجوده فيحتاج الى سبب وجودى لأنّ العدم لا يكون مصدراً للوجود ، فالموجود إن حدث فإنما يكون حدوثه بإيجاد ، وذلك كله يديهى.

كما يحتاج الممكن للسبب فى وجوده ابتداء يحتاج إليه فى البقاء ، لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضى الوجود ، ولا يرجع لها الوجود عن العدم إلّا للسبب الخارجى الوجودى ، فذلك لازم من لوازم ماهية الإمكان لا يفارقه من حيث هو ، فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها الوجود لذاته ، فيكون فى جميع أحواله محتاجاً الى مرجح للوجود عن العلم ، لافرق بين الابتداء والبقاء .

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الإيجاد ، ومعطى الوجود ، وهو الذى يعبر عنه بالموجد ، وبالعلة الموجدة ، وبالعلة الفاعلة ،

وبالفاعل الحقيقى ، ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعد الذى يهبط الممكن لقبول الإيجاد من موجد ، وهو بهذا المعنى قد يحتاج إليه فى الإبتداء ويستغنى عنه فى البقاء ، وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ، ومن هذا القبيل وجود البناء ، فإنه شرط فى وجود البيت ، وقد يموت البناء ويبقى بناؤه ، وليس البناء واهب الوجود للبيت ، وإنما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار إرادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به ، وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شىء وبين استفادته الوجود من شىء فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما فى توقف الخطوة الثانية على الأولى ، فإن الأولى ، ليست واهبة الوجود للثانية ، وإلا يجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد إلا إذا انعمت الأولى ، أما إستفادة الوجود فتقتضى سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمداً من وجود الواهب لا يقوم إلا به فلا يستقل بنفسه دونه فى حال من الأحوال .

الامكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن ، وأخرى تنعدم بعد أن كانت ، كاشخاص النباتات والحيوانات ، فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة ، لاسبيل الى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ، ولا الى الثانى لأن الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول ، فلا يطرأ

عليه العدم ولايسبقه ، كما سيجىء فى أحكام الواجب : فهى ممكنة ،
فالممكن موجود قطعاً.

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج الى
سبب يعطيه الوجود ، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى
موجد لها ، فإما أن يكون عينها ، وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء
على نفسه ، وإما أن يكون جزءاً ، وهو محال لاستلزامه أن يكون
الشيء سبباً لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأول ولنفسه فقط إن فرض أول
ويطلانه ظاهر ، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات ، والوجود
الذى ليس بممكن هو الواجب ، اذ ليس وراء الممكن إلا المستحيل
والواجب ، والمستحيل لا يوجد ، فيبقى الواجب ، فثبت أن للممكنات
الموجودة موجداً واجب الوجود.

وأيضاً الممكنات ، سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة
بوجود ، فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الإمكان وماهيات
الممكنات ، وهو باطل لما سبق فى أحكام الممكن من أنه لاشئ من
الماهيات الممكنة يقتضى للوجود ، فتعين أن يكون مصدره سواها وهو
الواجب بالضرورة .

أحكام الواجب

صفات البرهان التي يجب الاعتقاد بها
القدم . . والبقاء . . ونفس التركيب

من أحكام الواجب : أن يكون قديماً أزلياً ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثاً ، والحادث ماسبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقاً بعدم وكل ما سبق بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود ، وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب ، وهو محال ، فلو لم يكن الواجب قديماً لكان محتاجاً في وجوده إلى موجد غيره وقد سبق أن الواجب ما وجوده لذاته ، فلا يكون ما فرض واجباً ، وهو تناقض محال.

ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم ، وإلا لزم سلب ماهو للذات عنها ، وهو يعود سلب الشيء عن نفسه ، وهو محال بالبدهة.

ومن أحكامه أن لا يكون مركباً ، إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته ، وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة ، فيكون وجوده جملة محتاجاً إلى وجود غيره ، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته ، ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفاً على الحكم بوجود أجزائه ، وقد قلنا إنه له لذاته من حيث هي ذاته ، ولأنه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه ، بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه .

نفى التركيب فى الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية ، فلا يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب ، فان الأجزاء العقلية لابد لها من منشأ انتزاع فى الخارج ، فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة فى الخارج وإلا كانت مافرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لاحقيقة.

كما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلاً للقسمة فى أحد الامتدادات الثلاث ، أى لا يكون له امتداد ، لأنه لوقبل القسمة لعاد بها الى غير وجوده الأول ، وصار الى وجودات متعددة ، وهى وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة ، فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق.

الحياة

معنى الوجود وإن كان يدهيها عند العقل لكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار ، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداية.

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة فى المعنى السابق ذكره ، وإلا كان الوجود لمرتبة سواها ، وقد فرض لها . ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر ، وأكمل مثال فى أى مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والكون

على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش ، فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجوداً مستمراً وإن فى النوع ، كان أدل على كمال المعنى الوجودى فى صاحب المثال.

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدراً لكل نظام كان ذلك عنواناً على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها.

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا ، وظهر بالبرهان القاطع ، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها ، فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا.

وكل ما تصوره العقل كمالاتى الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور ، وأمكن أن يكون له ، وجب أن يثبت له ، وكرنه مصدراً للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا ، فيجب أن يكون ذلك ثابتاً له ، فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له .

فكما يجب أن يكون له صفة الحياة ، وهى صفة تستتبع العلم والارادة ، وذلك أن الحياة بما يعتبر كمالاتى للوجود بداهة ، فان الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام ، وناموس الحكمة . وهى فى أى مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار فى تلك المرتبة ، فهى كمال وجودى ، ويمكن أن

يتصف بها الواجب وكل كمال وجودى يمكن أن يثبت له ، فواجب الوجود
 حى ، وإن باينت حياته حياة الممكنات ، فإن ماهو كمال للوجود إنما هو
 مبدأ العلم والإرادة . ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان فى الممكنات
 ماهو أكمل منه وجوداً ، وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه .
 والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه ، فكيف لو كان فاقداً للحياة
 يعطيها ؟ فالحياة له كما أنه مصدرها .

العلم

وبما يجب له : صفة العلم ، ويراد به ما به انكشاف شىء عند من
 ثبتت له تلك الصفة ، أى مصدر ذلك الانكشاف منه ، لأن العلم من
 الصفات الوجودية التى تعد كمالاً فى الوجود ، ويمكن أن تكون
 للواجب ، وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود عالم .
 ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال فى الموجودات الممكنة ، ومن
 الممكنات من هو عالم ، فلو لم يكن الواجب عالماً لكان فى الموجودات
 الممكنة ماهو أكمل من الموجود الواجب ، وهو محال كما قدمنا .
 ثم هو واهب العلم فى عالم الامكان ، ولا يعقل أن مصدر العلم
 يفقده .

علم الواجب من لوازم وجوده ، كما ترى ، فيعلو على العلوم علو
 وجوده عن الموجودات ، فلا يتصور فى العلوم ماهو أعلى منه ، فيكون

محيطاً بكل ما يمكن علمه ، والاتصور العقل علماً أشمل وهو انما يكون لوجود أكمل ، وهو محال.

ما هو لازم لوجود الواجب يفنى بقائه ويبقى ببقائه وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر الى شيء ما وراء ذاته ، فهو أزلى ، أبدى ، غنى عن الآلات ، وجولات الفكر ، وأفاعيل النظر ، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة.

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم ، وإلا لم يكن علماً.

ومن أدلة ثبوت العلم للواجب ما تشاهده في نظام الممكنات من الاحكام والاتقان ووضع كل شيء في موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه في وجوده وبقائه ، وذلك ظاهر للجلي النظر مما يشاهد في الأعيان ، كبيرها وصغيرها ، علوها وسفلها ، هذه الروابط بين الكواكب ، والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قدر لها ، والزام كل كوكب بمدار لوخرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره ، وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية ، كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره.

اعتبر بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها، وإيتائها ما تحتاج اليه في تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ، ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها ، وإبداع غير الحساس منها ، كالنبات قوة الجبل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه ، فترى بذرة الحنظل

تدفن بجوار حبة البطيخ فى أرض واحدة ، ثم تسقى بماء واحد ، وتنمى بعناية واحدة ، ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاف وهذه تتناول ما يقدر حلو المذاق . وإرشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء ، وسوق كل قوة من قواه الى ما قدرت له ، فهو الذى يعلم حال الجنين وهو نطفة أو علقة ، ويعلم بحاجته متى تكامل خلقه وأنشأ نشأة الحى المستقل فى عمله ، الى الأيدي والأرجل والأعين والمشام والأذان وبقية المشاعر الباطنة ، يستعمل ذلك فيما يقيم وجوده وبقية من العوادم عليه ، وحاجته الى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التى لاغنى عنها فى النمو والبقاء الى الأجل المحدود للشخص أو للنوع ، وهو الذى يعلم حالة الجرورة من الكلاب ، مثلاً ، وأنها متى كبرت تلد الجراء متعددة فيمنحها أطباء (٣٢) متكثرة ، وغير ذلك مما لا يستطيع احصاؤه ، وقد فصل الكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعى وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه ، على أن الباحثين فى كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا فى أول البحث .

(٣٢) مفرداً طبي ، يضم الطاء وكسرها مع سكون الباء ، وهو حلمه الوضع ، المراد هنا كثرة حلقات الكلية كى ترضع الجراء الكثيرة فى وقت واحد .

هذا الصنيع الذى انما تتفاضل العقول فى فهم أسرارها ، والوقوف على دقائق حكمه ، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء ، الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة أن يكون ينبوعا لهذا النظام ، وواضعا لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الاكوان ، عظيمها وحقيبرها ؟ كلا . . . بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

الارادة

بما يجب لواجب الوجود : الارادة ، وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة ، بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب ، وأنه عالم ، وأن مايرجع من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه ، ثبت بالضرورة أنه مريد ، لأنه إنما يفعل على حسب علمه . ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة ، وله وقت ومكان محدودان ، وهذه وجود قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة ، وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ، ولا معنى للارادة إلا هذا .

أما مايعرف من معنى الارادة ، وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ماقصده ، وأن يرجع عنه ، فذلك محال فى جانب الواجب ، فان هذا المعنى من الهموم الكونية ، والعزائم القابلة للفسخ ، وهى من توابع

النقص فى العلم ، فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك .

القدرة

ومما يجب له : القدرة ، وهى صفة بها الابداع والإعدام . ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته ، فلا ريب يكون قادراً بالبدهة ، لأن فعل العالم المرید فيما علم وأراد أنما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان .

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار ، اذ لا معنى له إلا إصدار الأمر بالقدرة على مقتضى العلم ، وعلى حكم الإرادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه فى خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا إرادة ، وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف ، بحيث لو لم يراعده لتوجه عليه النقد ، فيأتيه تنزهها عن اللاتمة ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها ، فالكمال فى الكون انما هو تابع لكمال المكون ، واثقان الإبداع انما هو مظهر لسمو

مرتبة المبدع ، وبهذا الوجود البالغ اعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع ﴿أَلْحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٣) ، وهذا هو معنى قولهم : إن أفعاله لا تعلق بالأغراض ، ولكنها تنزه عن العبث ، ويستحيل أن تخلو من الحكم ، وإن خفى شيء من حكمتها عن أنظارنا.

الوحدة

وما يجب له : صفة الوحدة ، ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلًا . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته ، خارجاً وعقلاً ، وأما الوحدة فى الصفة ، أى أنه لا يساويه فى حياته الثابتة له موجود ، فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس فى الموجودات ما يساوى وإجب الوجود فى مرتبة الوجود ، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات ، وأما الوحدة فى الوجود وفى الفعل ، ونعنى بها التفرد بوجود الوجود ، وما يتبعه من إيجاد الممكنات ، فهى ثابتة ، لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة ، وإلا لم يتحصل معنى التعدد ، وكلما

(٣٣) المؤمنون : ١١٥.

اختلفت التعيينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة ، لأن الصفة
انما تعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ماثبتت له بالبداية ، فيختلف
العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لكل واحدة منها علم
وارادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ، ويكون لكل واحدة علم وارادة
يلتزمان ذاتها وتعينها الخاص بها .

هذا التخالف ذاتي ، لأن علم الواجب وارادته لازمان لذاته من
ذاته لا لأمر في الخارج ، فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما كما سبق .
وقد قمنا أن فعل الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته
، فيكون فعل كل صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية ، فلو
تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإرادتهم ، وهو خلاف
يستحيل معه الوفاق ، وكل واحد يقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من
الصفات له السلطة على الإيجاد فى عامة الممكنات ، فكل له التصرف
فى كل منها على حسب علمه وارادته ولا مرجع لتنفيذ أحد القدرتين
دون الأخرى ، فتتضارب أفعالهم بحسب التضارب فى علومهم وإرادتهم ،
فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود
ممكن من الممكنات ، لأن كل ممكن لابد أن يتعلق به الإيجاد على حسب
العلوم والارادات المختلفة ، فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات
متعددة ، وهو محال ، فلو كان فيهما آلهة إلا إلهة لفسدتا ، ولكن
الفساد ممتنع بالبداية ، فهو ، جل شأنه ، واحد فى ذاته وصفاته ،
لا شريك له فى وجوده ولا فى أفعاله .

الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها

ماقدمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد إليه البرهان ، وجاءت به الشريعة الإسلامية ، وما تقدمها من الشرائع المقدسة ، لتأييده والدعوة الإسلامية بلسان نبينا محمد ، ولسان من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .
ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ، ولا يحيله العقل إذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ولكن لا يهتدي إليه النظر وحده ، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعاً لما قرره الشرع ، وتصديقاً لما أخبر به .

الكلام

فمن تلك الصفات : صفة الكلام ، فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ، ونطق القرآن بأنه كلام الله . فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد أن يكون شأننا من شئونه ، قديماً بقدمه ، أما الكلام المسموع نفسه ، المعبر عن ذلك الوصف القديم فلا خلاف في حدوثه ، ولا في أنه خلق من خلقه . وخصص بالاسناد إليه لاختياره له سبحانه في الدلالة على ما أراد بلاغه لخلق ، ولأنه صادر عن محض قدرته ، ظاهراً وباطناً ، بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره ، والقول بخلاف ذلك مصادرة

للبداهة وتجرو على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل اليه ، فإن الآيات
التي يقرؤها القارئ تحدث وتفتنى بالبداهة كلما تليت .

والقائل يقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضل اعتقادا من كل ملة
جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة الى مخالفتها ، وليس في القول بأن
الله أوجد القرآن ، بدون دخل لكسب بشر في وجوده ، ما يمس شرف
نسبته بل ذلك غاية مادعا الدين الى اعتقاده ، فهو السنة ، وهو ما كان
عليه النبي ﷺ وأصحابه ، وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة .

أما ما نقل إلينا من ذلك الخلاف الذي فرق الأمة وأحدث فيها
الأحداث ، خصوصا في أوائل القرن الثالث من الهجرة ، وإباء بعض
الأئمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق ، فقد كان منشؤه مجرد التحرج ،
والمبالغة في التأدب من بعضهم ، وإلا فيبجل مقام مثل الإمام ابن حنبل
عن أن يعتقد أن القرآن المقروء قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكفيه
بصوته (٢٤) .

(٢٤) أي أن الحروف المكتوبة ، والاصوات المسموعة والمقروءة من فعل الانسان
الكاتب والقارئ ، أما المصدر الذي تعبر عنه هذه الحروف والاصوات ، والذي يعبر هو في
ذات الرقت عن مراد الله فهو قديم .. وكثيرون من الاشعرية يرون هذا الرأي ، أنظر
في ذلك فتوى للرزق بن عبد السلام في (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي ج٥
ص٨٦ . ٩٤ . ٨٩ طبعة القاهرة الأولى .

البصر والسمع

ومما ثبت له بالنقل : صفة البصر ، وهى ما به تنكشف المبصرات .
وصفة السمع ، وهى ما به تنكشف المسموعات . فهو السميع
البصير ، لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارية
ولا حدقة ولا باصرة .

كلام فى الصفات إجمالاً

ابتدىء الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله
بجملته وتفصيله يؤيد معناه ، وهو قوله ﷺ « تفكروا فى
خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .

إذا قدرنا عقل البشر قدره ، وجدنا غاية ما ينتهى إليه كما له انما
هو الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الادراك
الانسانى حسا كان أو وجدانياً أو تعقلاً ، ثم التوصل بذلك الى معرفة
مناشئها ، وتحصيل كليات لأنواعها ، والإحاطة ببعض القواعد لعروض
مايعرض لها ، أما الوصول الى كنه حقيقة فما لا تبلغه قوته ، لأن
اكتناء المركبات انما هو باكتناه ما تركبت منه ، وذلك ينتهى الى البسيط
الصرف وهو لاسبيل الى اكتناؤه بالضرورة ، وغاية ما يمكن عرفانه منه
هو عوارضه وآثاره ، خذ أظهر الأشياء وأجلها ، كالضوء : قرر

الناظرون فيه له أحكاماً كثيرة فصلوها فى علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه ، وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عيان ، وعلى هذا القياس .

ثم ان الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من الكائنات ، وإنما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله ، ان كان سليماً إنما هى تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به ، وإدراك القواعد التى قامت عليها تلك النسب ، فالاشتغال بالاكتناء اضاءة للوقت وصرف للقوة الى غير ما سبقت اليه . اشتغل الإنسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء اليه ، وهى نفسه ، أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هى عرض أو جوهر ؟ هل هى قبل الجسم ؟ أو بعده ؟ هل هى فيه ؟ أو مجردة عنه ؟ .. كل هذه صفات لم يصل العقل الى إثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وإنما مبلغ جهده انه عرف أنه موجود حتى له شعور وإرادة ، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الى تلك العوارض التى وصل إليها ببديهة ، أما كنه شيء من ذلك ، وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ، ولا يجد سبيلاً للعلم به هذا حال العقل الإنسانى مع ما يساويه فى الوجود أو ينحط عنه ، بل وكذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق ، فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الأعلى ؟ ماذا يكون إندهاشه ، بل إنقطاعه (٣٥) إذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الأزلئ الأبدى ؟

(٣٥) الانتطاع هنا بمعنى العجز

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة الى المنافع الدنيوية، ويضى
للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت أنواره، والى
اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ماهى عليه من النظام .

وتخالف الأنتظار فى الكون انما هو من تصارع الحق والباطل ،
ولا بد أن يظفر الحق ويعلو الباطل بتعاون الأفكار، أو صولة القوى منها
على الضعيف.

أما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناء من جهة، وهو ممتنع
على العقل البشرى، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين
ولاستحالة التركيب فى ذاته ، وتناول الى ما لا تبلغه القوة البشرية،
من جهة أخرى، فهو عبث ومهلكة؛ لأنه سعى الى ما لا يدرك، ومهلكة
لأنه يؤدى الى الخبط فى الإعتقاد، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده،
وحصر لما لا يصح حصره .

لاريب أن هذا الحديث، وما أتينا عليه من البيان، كما يأتى فى
الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها ، فالنهى واستحالة الوصول
الى الإكتناء شاملان لهما . فيكفيينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف
بها ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز، وما سبقه من الكتب، إلا بتوجيه
النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية،
ما كيفية الإتنصاف بها فليس من شأننا أن نبحث فيه.

قالذى يوجهه علينا الإيمان هو أن تعلم أنه موجود، لا يشبه الكائنات، أزلى، أبدى، حى، عالم، مريد، قادر، منفرد فى وجوده، وفى صفاته، وفى صنع خلقه، وأنه متكلم، سميع، بصير، وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه. أما كون الصفات زائدة على الذات، وكون الكلام صفة غير ما شتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشئون التى اختلف عليها النظر وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه، اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه، والاستدلال على شىء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل وتفرير بالشرع، لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لاتراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى، وإنما تلك مذاهب فلسفة، إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع. فما علينا إلّا الوقوف عندما تبلغه عقولنا، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وما جاء به وسله من تقدمنا.

أفعال الله جل شانه

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته، كما سبق تقديره، وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختبار، ولا شيء مما يصدر عن الاختبار بواجب على المختار لذاته، فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الأفعال من : خلق، ورزق، وإعطاء، ومنع، وتعذيب، وتنعيم، مما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص، فلا يظوفن بعقل عاقل . بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة . أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته، كما هو الشأن في لوازم الماهيات، أو في انصاف الواجب بصفاته مثلاً، فإن ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة كما سبقت الإشارة إليه .

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمقى التي اختبط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق في السير إلى مقصد واحد، حتى إذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستنجد، فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعتة على ما يبيده، فاستمر بينهم القتال، ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد إلى ما بقي، وهم الناجون، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملوا، ولوائنتهم الغاية إخواناً بنور الحق مهتدين. نريد تلك المقالات المضطربة في أنه يجب على الله رعاية

المصلحة في أفعاله (٣٦)، وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عيبه (٣٧)، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأعراض، فقد بالغ قوم في الإيجاب حتى ظن الناظر في مزاعمهم أنهم عدوه واحداً من المكلفين، يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وغلا آخرون في نفي التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن في مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قلباً يبرم اليوم مانقضه بالأمس، ويفعل غداً ما أخبر بنقيضه اليوم، أو غافلاً لا يشعر بما يستتبعه عمله، ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ (٣٨)، وهو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين، جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله.

اتفق الجميع على أن أفعاله لا تخلو من حكمة، وصرح الغلاة والمقصرون جميعاً بأنه تعالى منزّه عن العبث في أفعاله، والكذب في

(٣٦) وهو ما يعرف عند المعتزلة من أن الله سبحانه يجب عليه فعل الصلاح والاصلاح لعباده .

(٣٧) وهو أحد الأصول الخمسة عند المعتزلة ، سموه صدق الوعد والوعيد ، وأحالوا عليه أن يتخلف وعده للطائعين ووعيده للمعاصين . انظر الفصل الذي كتبناه عن هذه الأصول الخمسة في بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

(٣٨) الصفات : ١٨٠ .

أقواله، ثم بعد هذا أخذوا يتناهبون بالألفاظ ويتمارون فى الأوضاع، ولا يدري الى أى غاية يقصدون، فلنأخذ مااتفقوا عليه، ولنرد الى حقيقة واحدة ماختلفوا فيه.

حكمة كل عمل مايترتب عليه ممايحفظ نظاماً أو يدفع فساداً، خاصا كان أو عاماً، لو كشف للعقل من أى وجه لعقله، وحكم بأن العمل لم يكن عبثاً ولعباً، ومن يزعم للحكمة معنى لايرجع الى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغة، وبداية العقل. لايسمى مايترتب على العمل حكمة، ولا يتمثل عند العقل بشالها إلا إذا كان مايتبع العمل مراداً لقاعله بالفعل، وإلا لعد النائم حكيماً فيما لو صدرت عنه حركة فى نومه قتلت عقرباً كاد يلسع طفلاً، أو دفعت صبيّاً عن حفرة كاد يسقط فيها، بل لوسم بالحكمة كثير من العجماوات إذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة، والبداية تأباه.

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء أن أفعال العاقل تصان عن العبث. ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بإرادته ، ويريدون من صونها عن العبث أنها لاتصدر إلا لأمر يترتب عليها، يكون غاية لها، وإن كان هذا فى العاقل الحادث فما ظنك بمصدر كل عقل ومنتهى الكمال فى العلم والحكم؟ كلها مسلمات لاينازع فيها أحد.

صنع الله الذى أتقن كل شىء، وأحسن خلقه، مشحون بضروب الحكم، ففيه ماقامت به السماوات والأرض وما بينهما ، وحفظ به نظام

الكون بأسره ، وما صانه عن الفساد الذى يفضى به الى العدم ، وفيه مااستقامت به مصلحة كل موجود على حدته، خصوصاً ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان، ولولا هذه البدائع من الحكم مايسر لنا الاستدلال على علمه.

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شىء فى موضعه ، وإبتاء كل محتاج ماله إليه الحاجة، أما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا . . لا يمكن القول بالثانى ، وإلا لكان قولاً بقصور العلم إن لم تكن معلومة أو بالغفلة إن لم تكن مرادة، وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شىء ، واستحالة غيبة أثر من آثار إرادته ، فهو يريد الفعل، ويريد مايترتب عليه من الحكمة، ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هى تابعة للفعل.

ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل، مع العلم بارتباطها به. فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة، إذ لوصح توهم أن مايترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة ، كما سبق.

فوجب الحكمة فى أفعاله تابع لوجب الكمال فى علمه وإرادته، وهو ما لاتزاع فيه بين جميع المتخالفين، وهكذا يقال فى وجوب تحقيق ماوعد وأوعد به، فإنه تابع لكمال علمه وإرادته وصدقه ، وهو أصدق القائلين، وما جاء فى الكتاب والسنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار، حتى ينطبق الجميع على ماهدت

إليه البديهيّات السابق إيرادها، وعلى ما يليق بكمال الله ، وبالغ حكمته، وجليل عظّمته، والأصل الذي يرجع إليه كل وارد فى هذا الباب قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَفَعَلْنَا لَأَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا قَاعِلِينَ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (٣٩) وقوله :
﴿لَأَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا أَى لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق، الذى لا يشوبه نقص، وهو محال، وإن فى قوله: ﴿إِنْ كُنَّا قَاعِلِينَ﴾، نافية، وهو نتيجة القياس السابق.

بقى أن الناظرين فى هذه الحقائق ينقسمون الى قسمين: فمنهم من يطلب علمها لأنه شهرة العقل وفيه لذته، فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ولا يبالى جوز الشرع إطلاقها فى جانب الله أم لم يجوز، فيسمى الحكمة غاية وغرضاً ، وعلّة غائية، ورعاية للمصلحة، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يردّه عن إطلاقه اسماً متى صح عنده معناه ، وقد يعبر بالواجب عليه بذل الواجب له، غير مبال بما يوهمه اللفظ.

(٣٩) الأنبياء - ١٦ - ١٨.

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به، واعتقاد بشئون إله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم، ويجب الإحتياط فى تنزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصاً فى جانبه ، فيتبرأ من تلك الألفاظ، مفرداً ومركبها، فإن الوجوب عليه يوهم التكليف والالزام، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر واجالة الفكر، وهما من لوازم النقص فى العلم والغاية ، والعلة الغائية والغرض توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل الى نهايته ، وفيها ما فى سوابقها، ولكن الله أكبر . . هل يصح أن تكون سعة المجال أو التعفف فى المقال سبباً فى التفرقة بين المؤمنين، وقاريهم فى الجدل حتى ينتهى بهم التفرق الى ماصاروا إليه من سوء الحال؟!

افعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ، ولا يحتاج
فى ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرک
لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ، ويقدرها بارادته ، ثم يصدرها
بقدره مافيه ، وبعد إنكار شيء من ذلك مساوياً لإنكار وجوده ، فى
مجاافته لهداهة العقل .

كما يشهد بذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بنى نوعه كافة ، متى
كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل
فيغضبه . وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى الى منجاة فسقط
فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يحكم النظر فى تقدير
فعله ، ويتخذ من خيبته أول أمره مرشداً له فى الأخرى ، فيعاود العمل
من طريق أقوم وبوسائل أحكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين
مايشتهى ، ان كان سبب الاخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى
مطلبه ، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه فينبى لمناضله ،
وتاره يتجه الى امر اسمى من ذلك ، ان لم يكن لتقصيره أو لمنافسة
غيره دخل فيما لقى من مصير عمله ، كأن هب ربح فأغرق بهضاعته ، أو
نزل صاعق فأحرق ماشيته ، أو علق أمله بمعين فمات ، أو بذى منصب
فعزل ، يتجه من ذلك الى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها
قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطانا لاتصل اليه سلطته ، فان كان قد هداه ،

البرهان وتقويم الدليل الى أن حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد، يصرفه على مقتضى علمه وأرادته، خضع وخضع ، ورد الأمر إليه فيما لقي ، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى ، فالؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكن الكائنات أسمى من قوى المكنات ، يشهد بالبدهة أنه فى أعماله الاختيارية، عقلية كانت أو جسمانية ، قائم تصرف ما وهب الله له من المداك والقوى فيما خلقت لأجله، وقد عرف القوم شكر الله على نعمه فقالوا : هو صرف العبد جميع ما انعم الله به عليه الى ما خلق لأجله.

على هذا قامت الشرائع، وبه استقامت التكاليف، ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه، وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وأرادته وقدرته، وبين ما تشهد به البدهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخرص فيه، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه ، وقد خاض فيه الغالبون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين، ثم لم يزالوا بعد طول الجدل وقوفاً حيث ابتدءوا، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها

المطلق (٤٠) ، وهو غرور ظاهر، ومنهم من قال بالجبر وصرح به (٤١) ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه (٤٢) ، وهو هدم للشرعية ومحو للتكاليف وإبطال لحكم العقل البديهي ، وهو عماد الإيمان .

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدي إلى الاشراك بالله ، وهو الظلم العظيم ، دعوى من يلتفت إلى معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة ، فالاشراك: اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ماوجه الله من الاسباب الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ماخرج عن قدرة المخلوقين . وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لايقدر العبد عليه ، كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش . والاستشفاء من الأمراض بغير الادوية التي هدانا الله إليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسبل التي شرعها الله لنا . هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم ، فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والاسباب الكونية إلى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية:

(٤٠) هم المعتزلة ومن رأي وأبهم .

(٤١) وهم الجبرية الخالص ، وأول فرقهم «الجهمية» أتباع الجهم بن صفوان ، التوفي سنة ١٢٨هـ ، وسارت على دريهم هذا فرق كثيرة . انظر الفصل الذي كتبناه عن الجبرية في بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) .

(٤٢) هم الاشعرية الذين لا يفتى عنهم قولهم بالكسب شيئاً من الاتفاق لمي نهاية المطاف مع الجبرية . انظر في ذلك بحثنا السابق أيضاً .

الأول : أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته.
والثاني : أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات، وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريد، وإن لاشيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه.

جاءت الشريعة لتقرير ذلك، وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه الى اتمام عمله، بعد احكام البصيرة فيه ، وتكليفه بان يرفع همه الى استمداد العون منه وحده ، بعد أن يكون قد أفرغ ماعنده من الجهد في تصحيح الفكر واجادة العمل. ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب الى غير ذلك.

وهذا الذي قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الاعمال بما عجبت له الأمم. وعول عليه من متأخري أهل النظر أمام الحرمين الجويتى، رحمه الله، وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه.

أكرر القول بأن الإيمان بوحداية الله لا يقتضى من المكلف الا اعتقاد أن الله صرفه في قواه، فهو كاسب لإيمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال، واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته، ولها وحدها السلطان الأعلى في اتمام مراد العبد بإزالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتتممة لما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته.

أما التطلع الى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الإيمان، كما بينا، وإنما هو من شره العقول في طلب رفع الاستار على الأسرار،

ولا أنكر أن قوماً قد وصلوا بقوة العلم، والمثابرة على مجاهدة المذالك الى ما أطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ، ولكن قليل ما هم على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء، ويخص به أهل الولاية والصفاء . وكثر ماضل قوم وأضلوا، وكان لمقاتلتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم، لو شئت لقرئت البعيد فقلت: ان من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الأنواع على ما هي عليه فى العيان ، ولا يكون النوع ممتازاً عن غيره حتى تلزمه خواص، وكذا الحال فى تميز الأشخاص ، فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هي عليه، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه.

اختيار الإنسان

ومن تلك الأنواع الانسان، ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات، أن يكون مفكراً مختاراً فى عمله على مقتضى فكره، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه، ولو سلب شيء منها لكان إما ملكاً أو حيواناً آخر، والفرص أنه الانسان، فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل.

ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بإرادته، وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا، وهو خير يثاب عليه، وإن عملاً آخر يعاقب عليه. عقاب الشر والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار،

فلا شيء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب ، وكون ما فى العلم يقع
لامحالة إنما جاء من حيث هو الواقع، والواقع لا يتبدل، ولنا فى علومنا
الكونية أقرب الأمثال: شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن
عصيانه لأمره باختياره يحل به عقوبته لامحالة، لكنه مع ذلك يعمل
العمل ويستقبل العقوبة، وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع
أدنى أثر فى إختياره، لا بالمتنع ولا بالإلزام، فأنكشاف الواقع للعالم
لا يصح فى نظر العقل ملزماً ولا مانعاً، وإنما يريك الوهم تغيير العبارات
وتشعب الألفاظ. ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن
عقل ألف النظر الصحيح، ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية، لكن
يمنى عن الإطالة فيه عدم الحاجة إليه فى صحة الإيمان وتقصير عقول
العامة عن إدراك الأمر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الإيضاح عنه،
والتبثات قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد، فهم يعتقدون الأمر ثم
يطلبون الدليل عليه، ولا يريدونه إلا موافقاً لما يعتقدون، فان جاءهم بما
يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته وان أدى ذلك إلى جحد
العقل برمته، فأكثرهم يعتقد فيستدل، وقلما تجدد بينهم من يستدل
ليعتقد، فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم: ويل للخابط، ذلك
قلب لسنة الله فى خلقه، وتحريف لهدية فى شرعه، عرتهم هزة من
الجزع ، ثم عادوا الى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف، وما أقمنا
إلا على معروف. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

حسن الأفعال وتبجحها

الأفعال الإنسانية الاختيارية لاتخرج عن أن تكون من الأكران الواقعة تحت مداركنا، وماتنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها فى مخيلاتنا، وذلك هديهى لا يحتاج الى دليل.

نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الأشياء والتبجح منها، فإن اختلفت مشارب الرجال فى جمال النساء، أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال، فلم يختلف أحد فى جمال ألوان الأزهار، وتنضيد أوراق النباتات والأشجار، خصوصاً إذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الإبتلاط والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض، ولا فى تبجح الصورة المثل بها بتهشيم بعض أجزائها، وانقطاع البعض الآخر على غير نظام، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجاباً، ومن التبجح اشمئزاً أو جزعاً، وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات، كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم بإحدى تلك الحواس.

ليس هذا موضع تحديد ماهر الجمال وما هو القبح فى الأشياء، ولكن لا يخالفنا أحد فى أن من خواص الإنسان، بل وبعض الحيوان، التمييز بينهما، وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف

أنواعها ، وبه ارتقى العمران فى أطواره إلى الحد الذى تراء عليه الآن ،
وان اختلفت الأذواق ففى الأشياء جمال وقبح .

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق ، ولعله لاينزل عن تلك
الدرجة فى الوضوح مايلم به العقل من الموجودات المعقولة ، وان اختلف
اعتبار الجمال فيها ، فالكمال فى المعقولات كالوجود والواجب ، والأرواح
اللطيفة ، وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفوس عارفيه ،
وتنبهر له بصائر لاحظيه ، وللتقص قبح لاتنكره المدارك العالية ، وان
اختلف أثر الشعور ببعض أطواره فى الوجدان من أثر الاحساس
بالقبيح فى المحسوسات ، وهل فى الناس من ينكر قبح النقص فى
العقل ، والسقوط فى الهمة ، وضعف العزيمة ؟؟ ويكنى أن أرباب هذه
النقائص المعنوية يجاهدون فى إخفائها ويفخرون أحياناً بأنهم متصفون
بأضدادها .

وقد يجمال القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجميل بقبح مايقترن به ،
فالمر قبيح مستشيع ، والملك الدميم المشوه الخلقة ينهو عنه النظر ، لكن
أثر المر فى معالجة المرض ، وعدل الدميم فى رعيته ، أو إحسانه إليك
فى خاصة نفسك ، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته ، فان
جمال الأثر يلتقى على صاحبه أشعة من بهائه ، فلا يشعر الوجدان منه
إلا بالجميل . ومثل ذلك يقال فى قبح الحلوا إذا أمر . واشمئزاز النفس من
الجميل إذا ظلم وأضر .

هل يمكن لعاقِل أن لا يقول فى الأفعال الاختيارية كما قال فى
الموجدات الكونية، مع أنها نوع منها، وتقع تحت حواسنا ومداركنا
العقلية، إما بنفسها وإما بأثرها، وتتفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما
يرد عليها من صور الكائنات؟ . . كلا . . بل هى قسم من الموجدات،
حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداية.

فمن الأفعال الاختيارية ما هو معجب فى نفسه، تجدد النفس منه
ما تجد من جمال الخلق، كالحركات العسكرية المنتظمة، وتقلب المهرة من
اللاعبين فى الألعاب المعروفة اليوم "بالجمناستيك"، وكإيقاعات
النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها، ومنها ما هو قبيح فى
نفسه، يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه، كتخبط ضعفاء
النفوس عند الجزع، وكولولة النائحات ونقع (٤٣) المذعورين.

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم، وما هو حسن لما يجلب من
اللذة أو دفع الألم، فالأول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال
الإنسان، والثانى كالأكل على جوع والشرب على عطش، وكل
ما يحصل لذة أو يدفع ألماً مما لا يحصى عدده، وفى هذا القسم يكون
الحسن بمعنى ما يلدُّ والقبيح بمعنى المؤلم.

(٤٣) من معانية ارتفاع الصوت والغبار، وشق الجيوب .

وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين
السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود، اللهم إله فى
قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح.

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتباره ما يجلب من النفع،
وما يقبح بما يجر إليه من الضرر، ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن
والقبح بهذا المعنى إذا أخذ من أكمل وجهاته، وقلما يشاركه فيه حيوان
آخر، اللهم إلا من أخط جهاته وهو خاصة العقل وسر الحكمة الالهية فى
هبة الفكر.

فمن اللذيذ ما يقبح لشثوم عاقبته، كالإفراط فى تناول الطعام
والشراب، والانتطاع الى سماع الأغاني، والجري فى أغقاب الشهوات،
فان ذلك مفسدة للصحة، مضیعة للعقل، متلفة للمال، مدعاة للعجز
والذل، وإنما قبح اللذيذ فى هذا الموضع لقصر مدته، وطول مدة ما يجر
إليه عادة من الآلام التى قد لاتنتهى إلا بالموت على أسوأ حالاته،
ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم.

ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب
الرزق، وتأمين النفس على حاجاتها فى أوقات الضعف، ومجاهدة
الشهوات، ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حيناً من الزمن ليتوفر
للقوى البدنية والعقلية حفظها من التمتع بما قدر لها من اللذات على
وجه ثابت لا يخالطه اضطراب، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة، إن
عدت الحياة مشاراً لها.

ومن المولم الذى عده العقل البشرى حسناً مقارنة الإنسان عدوه ، سواء كان من نوعه أو من غيره، للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره، ومنهم بنوأبية أو قبيلته أو شعبه أو أمته، حسب ارتقائه فى الاحساس، ومخاطرته حتى بحياته فى سبيل ذلك، كأنه يرى فى هذا الحياة أمناً على حياة أخرى تشعر بها نفسه وإن لم يحددها عقله. ومنه معاناة التعب فى كشف ماعى عن علمه من حقائق الكون، كأنه لا يرى المشقة فى ذلك شيئاً بالقياس الى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة.

وعد من اللذيذ المستقيح مد اليد الى ما كسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد باتلاق نفس المحقود عليه أو ماله، لما فى ذلك من جانب المخافة العامة حتى على ذات المعتدى ويمكنك من نفسك استحضر ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها.

كل هذا عرفه العقل البشرى، وفرق فيه بين الضار والنافع، وسمى الأول فعل الشر والثانى عمل الخير، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة، وقد حددهما النظر الفكرى على تفاوت فى الإجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين، وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه فى هذه الحياة، كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده وعزة الأمم وذلتها وضعفها وقوتها، وإن كان المحددون لذلك والآخرون فيه يحظ الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر.

كل هذا من الأوليات العقلية، لم يختلف فيه ملى ولا فيلسوف.
فلأعمال الاختيارية، حسن وقبح فى نفسها، او باعتبار أثرها فى
الخاصة أو فى العامة، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها
وما تبع بالمعاني السابقة، بدون توقف على سمع.

والشاهد على ذلك ما تراه فى بعض أصناف الحيوان وما نشهده من
أنواع الصبيان قبل تعقل مامعنى الشرع، وما وصل إلينا من تاريخ
الإنسان وما عرف عنه فى جاهليته.

وبما يحسن ذكره هنا ما شاهد به بعض الناظرين فى أحول النمل، قال
: كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها، فجاءت غلة كأنها القائمة
بمراقبة العمل. فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من
الارتفاع المناسب، فأمرت بهدمه، فهدم، ورفع البنيان الى الحد الموافق،
ورضع السقف على أرفع مما كان، وذلك من انتقاض السقف القديم. وهذا
هو التمييز بين الضار والنافع، فمن زعم أن لاجسن ولا قبح فى الأعمال
على الإطلاق فقد سلب نفسه العقل، بل عذها أشد حمقاً من النمل.

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل، فإذا
وصل مستدل ببرهانه الى إثبات الواجب وصفاته الغير السمعية، ولم
تبلغه بذلك رسالة، كما حصل لبعض أقوام من البشر، ثم انتقل من
النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل فى الانسان يبقى
بعد موته، كما وقع لقوم آخرين، ثم انتقل من هذا مخطئاً أو مصيباً،

الى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء، ثم قال: ان سعادتها انما تكون بمعرفة الله وبالفضائل، وانها انما تسقط في الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل، وبنى على ذلك أن من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت لتحصيل السعادة ومنها ما هو ضار لها بعده بإيقاعها في الشقاء، فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله: إن معرفة الله واجبة، وان جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة، وان الرذائل وما يكون عنها محظورة؟؟ وان يصنع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد، والى أن يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه، أما أن يكون ذلك حالاً لعامة الناس، يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة، وان الفضائل مناط السعادة في الحياة الأخرى، والرذائل مدار الشقاء فيها، فلما لا يستطيع عاقل أن يقول به، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به في رأيه.

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل أو أسد مثلاً، وكان ما وهب له من الفكر واقفاً عند حد ما إليه الحاجة، لاهتدى الى المنع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراد، لیسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع. لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد، ولا تختص معيشته بهجو من الأجواء ولا يوضع من الأوضاع، وأن يوهب

من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سد عوزه وتوفير لذاته، فى أى اقليم، وعلى أى حال، وان يختلف ظهور هذه المدارك فى أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافاً لا تنتهى درجاته، ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات إلّا باستقامة القامة وعرض الأنظار.

وهبَ الله الإنسان او سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان :
الذاكرة، والمخيلة، والفكرة.

فالمذكرة: تشير من صور الماضى ماستره الاشتغال بالحاضر، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ماتنبه إليه الأشياء أو الأضداد الحاضرة، فقد يذكر الشئ بشبهه وقد يذكره بضده، كما هو بديهى.

والخيال: يجسم من المذكور، وما يحيط به من الأحوال، حتى يصير كأنه شاهد، ثم ينشئ له مثال لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ماذهب به الماضى، ويهمز للنفس فى طلبه أو الهرب منه فتلجأ الى الفكر: فى تدبير الوسيلة إليه.

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان، ومنها ينبوع بلائه . فمن الناس معتدل الذكر هادىء الخيال صحيح الفكر ، ينظر مثلاً فى حال مسرف انفق ماله فى غير نافع، وضائق يده عما يقيم معيشته ، فيذكر ألما لحاجة مضت، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع

به النفس من اللذة به ودفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره، بإعطاء المضطر ما يذهب بضرورته، ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التى لا تتعلق بها حق من حقوق غيره، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة إليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ما وهبه الله من القوى فى نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به .

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال ، يرى مالا مثلا فى يد غيره، فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ، ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل، ولا يزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع فى ظل الخيال عن طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب، انما يعتمد الى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه ، لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له، وأخل بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده وسن سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى الراحة من أعمال المتطرفين لمثل عمله .

وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعاً على نحو ما بيناه فى المثالين، فلقوة الذاكرة وضعفها . ولحدة الخيال واعتداله، وأعوجاج الفكر واستقامته أعظم الأثر فى التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الأعمال، وللأمزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر، بل وفى الذكر.

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع، ومنها ما هو ضار، وبعبارة أخرى : منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح، ومن عقلاهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه أصابة وجه الحق في معرفة ذلك. ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أودم فائدة وإن كان مؤلماً في الحال، وأن القبيح ما جر الى فساد في النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به، وإن عظمت لذته الحاضرة، ولكنهم يختلفون في النظر الى كل عمل بعينه اختلافهم في أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم، فلذلك ضربوا الى الشر في كل وجه، وكل يظن أنه إنما يطلب نافعاً ويتقى ضاراً.

فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه سعادته في هذه الحياة، اللهم إلّا في قليل من لم يعرفهم الزمن، فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال، وقد سبقت الإشارة اليهم فيعامر.

وليست عقول الناس سواء في معرفة الله تعالى، ولا في معرفة حياة بعد هذه الحياة، فهم وإن اتفقوا في الخضوع لقوة أسمى من قواهم، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم، ولكن أفسلت الوثنية عقولهم، وانحرفت بها عن مسلك السعادة، فليس في سعة العقل الانساني في الافراد كافة أن يعرفه من الله ما يجب أن يعرف، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم ، ولا أن يقرر لكل نوع من

الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة، وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل، ونور البصيرة، وإن لم ينل شرف الاقتداء بهدى نبوى، ولو بلغه لكان أسرع أتباعه، وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم الى العرفان من وجه غير مايليق فى الحقيقة أن ينظر منه الى الجلال الإلهى.

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده، وهو تفصيل اللذائذ والآلام، وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما، ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه لافى هذه الحياة ولاقيما بعدها، كصور العبادات، كما يرى فى أعداد الركعات، وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الإسلامية وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية، كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه، ويعلم الله أن فيه سعادته.

لهذا كله كان العقل الانسانى محتاجاً، فى قيادة القوى الإدراكية والبدنية الى ما هو خير له فى الحياتين، الى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ماينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة، ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من جنسه، ليفهم منه أو عنه مايقول، وحتى يكون ممتازاً على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليقة، ويكون بذلك مبرهننا على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هو عليه، ويعلم صفاته الكمالية، وماينبغى أن

يعرف منها ، والحياة الآخرة ، وما أعد فيها ، فيكون الفهم عنه ، والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير ، معيناً للعقل عل ضبط ماتشتت عليه ، أو درك ماضف عن ادراكه ، وذلك المعين هو النبى .

النبوة تحدد ماينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات ، ومايحتاج اليه البشر كافة من ذلك ، وتشير الى خاصتهم بمايمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم من مقامات عرفانهم ، لكنها لايتحتم إلا مافيه الكفاية العامة ، فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله ، ووحدايته ، وبالصفات التى أثبتناها ، على الوجه الذى بيناه ، وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك ، فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص ، وحسن المعرفة ، وحظر الجهالة والجهود بشىء أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه مما لايعرف إلا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ، ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والافتناع الذى هو عماد الطمأنينة ، فان زيد على ذلك أن العرفان ، على مايبينه الشرع ، يستحق المثوبة المعينة فيه ، وضده يستحق العقوبة التى نص عليها ، كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة ، غير أن ذلك لاينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها ، وإنما جاء الشرع مبيناً للواقع ، فهو ليس محدث الحسن ، ونصوبه تؤيد ذلك ، واذكر مثالا من كثير:

قال تعالى على لسان يوسف ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ
 اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٤٤) يشيرون بذلك إشارة واضحة الى أن
 تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه
 فوق قوتهم، وهو يذهب بكل قوته الى التعصب لما وجه قلبه إليه، وفي
 ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى، أما إعتقاد جميعهم باله واحد فهو
 توحيد لمنازح نفوسهم الى سلطان واحد، يخضع الجميع لحكمه، وفي ذلك
 نظام أخوتهم، وهي قاعدة سعادتهم، واليها مآلهم فيما أعتقد وإن طال
 الزمان، فكما جاء الشرع مطالباً بالاعتقاد جاء هادياً لوجه الحسن فيه.

النبوة تحدد أنواع الأعمال التي تُنَاط بها سعادة الإنسان في
 الدارين، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التي حددتها، وكثيراً
 ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه،
 فوجوب عمل من الأمور به، أو التندب إليه، وحظر عمل، أو كراهته من
 المنهى عنه على الوجه الذي حددته الشريعة، وعلى أنه مثاب عليه
 بأجر كذا، ومجازى عليه بعقوبة كذا، مما لا يستقل العقل بمعرفته، بل
 طريقة معرفته شرعية، وهو لا ينافي أيضاً أن يكون الأمور به حسناً في
 ذاته، بمعنى أنه مما يؤدي الى منفعة دنيوية أو أخروية، باعتبار أثره
 في أحوال المعيشة، أو في صحة البدن أو حفظ النفس أو المال أو

(٤٤) يوسف: ٣٩ .

العرض أو في زيادة تعلق القلب بالله، جلّ شأنه، كما هو مفصل في
الاحكام الشرعية. وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه، ومن
المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه، وهذا النوع لاحسن له الا الأمر ولا تبج
إلا النهى. والله أعلم .

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة، بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الانسان وموفيه مالاغنى له عنه، كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجتها، ووقاء وجودها، على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود.

والكلام فى هذا البحث من وجهين:

الأول : وهو أيسرهما على المتكلم، وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان، فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلاً من البشر، مبشرين بشوابه ومنذرين بعقابه، قاموا بتبليغ أمهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده، وتفصيل لأحكامه فى فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها، وفى مثالب فعال وخلاتق ينهاهم عنها، وأن يعتقد بوجود تصديقهم فى أنهم يبلغون ذلك عن الله، ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم، والإلتزام بما أمروا به والكف عما نهوا عنه، وأن يعتقد بأن منهم من أنزل الله عليه كتاباً تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها، وأن هذه الكتب التى نزلت عليهم حق، وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول

ولا للاستطاعة البشرية، وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه.. فمتى ادعى الرسول النبوة، واستدل عليها بالمعجزة، وجب التصديق برسالته.

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم، وصحة عقولهم، وصدقهم في أقوالهم، وأمانتهم في تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية، وسلامة أبدانهم مما تنبؤ عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة، وأنهم منزّهون عما يضاد شيئاً من هذه الصفات المتقدمة، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطر عليها سطوة روحانية.

أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعترهم ما يعترى سائر أفرادهم، يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام، ويعرضون وتمتد إليهم أيدي الظلمة، وينالهم الاضطهاد، وقد يقتلون.

المعجزة

المعجزة : ليست من نوع المستحيل عقلاً، فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقدّر دليل على استحالة، بل ذلك مما يقع، كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات، مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإلتلاف.

فإن قيل : ان ذلك لأبد أن يكون تابعاً لناмос آخر طبعى ، قلنا: إن واضح الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما فى الأمر أننا لاتعرفها، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده.

على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار، يسهل علينا العلم بأنه لايمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة، وتابعاً لأى سبب، إذا سبق فى علمه أنه يحدث كذلك.

المعجزة لأبد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده، لأن النبى يستند إليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله، فإصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له فى تلك الدعوى، ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب، فإن تأييد الكاذب تصديق له، وتصديق الكاذب كذب، وهو محال على الله. فمتى ظهرت المعجزة، وهى مما لايقدر عليه البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة، علم بالضرورة أن الله ماأظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة.

وأما السحر وأمثاله فإن سلم أن مظاهره فائقة عن آثار الأجسام والجسمانيات، فهى لاتعلو عن متناول القوى الممكنة، فلايقارب المعجزة فى شىء.

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبيااء، فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر،

أو من عقولهم شيء من الضعف، لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص: اختصاصهم بروحية، والكشف لهم عن أسرار علمه ولو لم تسلم أيدانهم عن المنغرات، لكان انزعاج النفس لمراهم حجة للمنكر في انكار دعواهم، ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم، ولكانوا مضلين لمرشدين، فتذهب الحكمة من بعثهم، والأمر كذلك لو أدركهم السهر أو النسيان فيما عهد إليهم تبليغه من العقائد والأحكام.

أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل في التشريع، فجروزه بعضهم، والجمهور على خلافه، وما ورد من مثل أن النبي ﷺ، نهى عن تأبير التخل، ثم إباحه لظهور أثره في الائتمار، فإنما فعله عليه الصلاة والسلام، ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب، وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم، ولا حظ عليهم فيه مادامت الشرائع مرعية والفضائل محمية. وما حكاه الله من قصة آدم وعصيان به بالأكل من الشجرة فمما خفى فيه سر النهي عن الأكل، والمواظدة عليه، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سبباً لعمارة الأرض ببنى آدم. كان النهي والأكل رمزان إلى طورين من أطوار آدم، عليه السلام، أو مظهران من مظاهر إقامة الدليل العقلي أو إصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب إليه الجمهور.

حاجة البشر إلى الوسالة

(الوجه الثاني) : سبق لك في الفصل السابق ما بهم الكلام عليه من الوجه الأول، وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده في

الرسول، والكلام فى هذا الفصل موجه، ان شاء الله ، الى بيان الحاجة إليهم، وهو معترك الأفهام، ومزلة الأقدام، ومزدهم الكثير من الأفكار والأوهام.

ولسنا بصدد الإتيان بما قاله الأولون، ولاعرض مذهب إليه الآخرون، ولكننا نلزم ماالتزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد، والذهاب إليه من أقرب الطرق، من غير نظر الى مآمال إليه المخالف أو استقام عليه الموافق، اللهم إلا إشارة من طرف خفى أو إلماعاً لا يستغنى عنه القول الجلى.

وللكلام في بيان الحاجة الى الرسول مسلكان:

الأول : وقد سبق الإشارة إليه يتدّىء من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت، وأن حياة أخرى بعد الحياة الدنيا، تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم، وأن السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء فى حياته الفانية، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالأعتقادات والمقاصد والارادات، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات.

اتفقت كلمة البشر، موحدين ووثنيين ، مليون وفلاسفة، إلا قليلاً لايقام لهم وزن، على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن، وأنها لاتموت موت فناء مطلقاً وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والحفناء، وإن اختلفت منازلهم فى تصوير ذلك البقاء ، وفيما

تكون عليه النفس وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه، فمن قائل : بالتناسخ^(٤٥) فى أجساد البشر أو الحيوان على الدوام، ومن ذاهب الى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال . ومنهم من قال: إنها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها من المادة، حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها.

ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية الطف من هذه الأجسام المُرئية. وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الآخرين، وفيما هو متاع الحياة الآخرة، وفى الوسائل التى تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم. وتضارب آراء الأمم فيه، قديماً وحديثاً، بما لا تكاد تحصى وجوهه.

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة، المنيث فى جميع الأنفس، عالمها وجاهلها، وحشيها ومستأنسها، باديها وحاضرها، قديمها وحديثها، لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزعة وهمية،

(٤٥) نظرية قديمة . قال بها فيثاغورس ، أخلأ عن الفلسفة الهندية ، وهي تعنى انتقال النفس بعد الموت إلى جسم آخر ، سواء أكان نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ، ومن المتصرف من يرى تقسيم التناسخ بحسب ما تنتقل إليه النفس ، فإذا انتقلت من إنسان إلى إنسان سمي «نسخا» . وإذا انتقلت من إنسان إلى نبات سمي «فسخا» . وإذا انتقلت من إنسان إلى جماد سمي «رسخا» ... انظر (المعجم الفلسفى) للدكتور مراد وهبة (وآخرين) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م مادة «تناسخ» .

وإنما هو الإلهامات^(٤٦) التي اختص بها هذا النوع، كما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه في هذه الحياة الدنيا.

وإن شذ أفراد منه، ذهبوا إلى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للإرشاد في عمل ما، أو إلى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد، ولا الفكر أن يصل إلى مجهول بل قالوا أن لا وجود للعالم إلا في إختراع الخيال وأنهم شاكون حتى في أنهم شاكون^(٤٧).

ولم يطعن شذوذ هؤلاء في صحة الإلهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأساس البقاء إلى الأجل المحدود.

كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان في الوجود، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن، ثم يكون حياً باقياً في طور آخر وإن لم يدرك كنهه .

ذلك الهام عقلي يكاد يزاحم البديهة في الجلاء، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية، من طرق غير

(٤٦) المراد هنا «بالإلهامات» : الشعور العام الموجود من أصل الفطرة ، وليس «الإلهامات» بمعنى ما يقابل «المعتولات» وسيأتي الحديث عن هذا المعنى الأخير فيما بعد .

(٤٧) الإشارة إلى مذهب «اللا أدوية» الذين ينكرون قيمة العقل وقدرته على المعرفة .

محصورة، شيقة الى لذائذ غير محدودة، ولا واقفة عند غاية، مهياة لدرجات من الكمال لاتحددها أطراف المراتب والغايات، معرضة لآلام من الشهوات، ونزعات الأهواء، ونزوات الأمراض على الأجساد، ومصارعة الأجواء والحاجات، وضروب من مثل ذلك لاتدخل تحت عد ولاتنتهى عند حد. الهام يستلفتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للأشواخ إنما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء، ولم يعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف، فمن كان استعدادده لقبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح أن يكون بقاؤه قاصراً على أيام أو سنين معدودات.

شعور يهيج بالأرواح الى تحسس هذا البقاء الأبدى، وما عسى أن تكون عليه متى وصلت إليه، وكيف الاهتداء، وأين السبيل وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل، شعورنا بالحاجة الى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الأقوم بل لزمنا الحاجة الى التعليم والارشاد، وقضاء الأزمئة والاعصار فى تقويم الأنظار، وتعديل الأفكار، واصلاح الوجدان، وثقيف الأذهان، ولاتزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا فى اضطراب، لاتدرى متى نخلص منه، وفى شوق الى طمأنينة لاتعلم متى تنتهى إليها.

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها الى الغائب؟ وهل فى طرق الفكر ما يوصل كل أحد الى

معرفة ماقدر له فى حياة يشعر بها ، وبأن لامندوحة عن القدوم عليها ، ولكن لم يهرب من القوة ماينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها ، والشئون التى لايد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه . أو إلى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشئون ؟؟ ، هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بتأطها من الاعتقادات والأعمال ، وذلك الكون مجهول لديك ، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة اليك؟؟.

كلا . . . فإن الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر ، ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت فالتنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلية . أفليس من حكمة الصانع الحكيم - الذي اقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم ، الذي خلق الانسان وعلمه البيان ، علمه الكلام للفاهم ، والكتاب للتراسل - أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها ، بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، يميزهم بالفطر السليمة ، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فيشرفون على الغيب بأذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين ، نهاية الشاهد وبداية الغائب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ، ثم يتلقون

من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى على العقول من شئون حضرته
الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدر أن يكون له مدخل
في سعادتهم الأخروية ، وأن يبيتوا للناس من أحوال الآخرة ما لابد لهم
من علمه ، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول
افهامهم ، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة ، تحدد لهم سيرهم في تقويم
نفوسهم وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم
وشقائهم في ذلك الكون المغيّب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاحق علمه
بأعماق ضمائرهم في اجمالهِ . ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة
بكليات الأعمال ، ظاهرة وباطنة ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من
الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الاقتناع بصدق الرسالة ، فيكونون
بذلك رسلا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين .

لاريب أن الذى أحسن كل شئ خلقه ، وأبدع فى كل كائن صنعه
، وجاد على كل حى بما إليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا
جليلا من خلقه ، يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه ، وأقام له
من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ، أن ينقله من
حيرته ، ويخلصه من التخيّل فى أهمّ حياته ، والضلال فى أفضل
حاليه .

يقول قائل : ولم لم يودع فى الغرائز ما تحتاج اليه من العلم؟ ولم
يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية فى
الحياة الآخرة؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم،

وهو قول يصدر عن شطط العقل، والغفلة عن موضوع البحث، وهو النوع الانساني، ذلك النوع على ما به، وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراده، وأن لا يكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه، وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال، فلو الهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع، بل كان إما حيواناً آخر كالنحل والنمل أو ملكاً من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض.

المسلك الثاني: في بيان الحاجة الى الرسالة يؤخذ من طبيعة الانسان نفسه: أرتنا الأيام، غابرها وحاضرها، أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر وينقطع إلى بعض الغايات أو إلى رؤوس الجبال، ويستأنس الى الوحش، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان، يتغذى بالأعشاب وجلود النبات، ويأوى الى الكهوف والمغاور، ويتقى بعض العوادي عليه بالصخور والأشجار، ويكتفى من الثياب بما يخصف (٤٨) من ورق الشجر أو جلود الهالك من حيوان البر، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا.

لكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدُّبر - (٤٩) - وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها، وإنما الانسان نوع

(٤٨) يلمق ويطبق .

(٤٩) الدُّبر، يفتح الدال المشددة وسكون الباء : جماعة النحل والزنابير .

من تلك الأنواع التي غرز في طبعها أن تعيش مجتمعة ، وإن تعددت
 فيها الجماعات ، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على
 المجموع في بقاءه ، وللمجموع من العمل مالا غنى للواحد عنه في نمائه
 وبقائه ، وأودع في كل شخص من أشخاصها شعور مابحاجة الى سائر
 أفراد الجماعة التي يشملها اسم واحد ، وتاريخ وجود الانسان شاهد
 بذلك ، فلا حاجة الى الإطالة في بيانه ، وكفاك من الدليل على أن
 الإنسان لا يعيش إلا في جملة ، ماوهبه من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه
 مستعداً لتصوير المعاني في الألفاظ وتأليف العبارات إلا لاستعداد
 الحاجة به الى التفاهم وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر إلا
 الشهادة بأن لاغنى لأحدهم عن الآخر.

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشتهه فيه ، وكلما
 كثرت مطالب الشخص في معيشته ازدادت به الحاجة الى الأيدي
 العاملة ، فتمتد الحاجة ، وعلى أثرها الصلة ، من الأصل الى العشيرة ،
 ثم الى الأمة ، والى النوع بأسره ، وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة
 التابعة للحاجة قد تعم النوع ، كما لا يخفى هذه الحاجة - خصوصاً في
 الأمة التي حققت عنوانها لها - صلات وعلاقى ميزتها عن سواها ،
 حاجة في البقاء ، حاجة في التمتع بمزايا الحياة ، حاجة في جلب
 الرغائب ودفع المكاراه من كل نوع.

لو جرى أمر الانسان على أساليب الحلقة في غيره لكانت هذه
 الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفرادها ، عامل يشعر كل نفس أن
 بقاها مرتبط ببقاء الكل.

فالكل منها بمنزلة بعض قواها، المسخرة لمنافعها، ودرء مضارها، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب، هي الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة الخطر، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظاً لنظام الأمم وروحاً لبقائها، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون، فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب، أو مانحج، فإن اشتدت كانت ولعاً وعشقا.

لكن . . . كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أو ماهر فيها لا يفارقها، ولا يكون هذا النوع منها فى الانسان إلّا إذا كان منشؤه أمراً فى روح المحبوب وشماله التى لا تفارق ذاته، حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لا فى عارض يتبعه، فإذا عرض التبادل والتعاوض، ولوحظ فى العلاقة بينهما، تحولت المحبة الى رغبة فى الانتفاع بالعوض، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع، وقام بين الشخصين مقام المحبة إمّا سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والتخديعة من الجانبين.

يحب الكلب سيده ويخلص له، ويدافع عنه دفاع المستमित، لما يرى أنه مصدر الاحسان إليه فى سداد عوزة، فصوره شبعه وريده وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكلفها له، فهو يتوقع فقدانها بفقدته، فيحرص عليه حرصه على حياته، ولو أنه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضاً لخطر ماعادت إليه تلك

الصورة يصل بعضها بعضاً ، واندفع الى خلاصة بما تمكنه القوة، ذلك أن الالهام الذي هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب، فوجدانه يتردد بين الإحسان ومصدره وليس له وراءها مذهب فجأته في سد عوزه هي حاجته الى القائم بأمره، فيحبه محبته لنفسه، ولا يبغض منها شوب التعارض في الخدمة.

أما الانسان - وما أدراك ما هو - فليس أمره على ذلك، ليس ممن يلهم ولا يتعلم، ولا ممن يشعر ولا يتفكر، بل كان كماله النوعى فى إطلاق مداركه عن القيد، ومطالبه عن النهايات، وتسليمه على صفه الى العالم الأكبر على جلالته وعظمه، يصارعه بعوامله، وهي غير محصورة، حتى يعتصر منه منافع، وهي غير محدودة، وإبداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه على المغالبة ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه، ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل إليه لذة، ويجوار كل لذة ألم أو مخافة، فلا تنتهى رغبته الى غاية، ولا تقف مخاوفه عند نهاية: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (١٠٠).

تفاوتت أفراده فى مواهب الفهم، وفى قوى العمل، وفى الهمة والعزم، فمنهم المقصر ضعفاً أو كسلًا، المتناول فى الرغبة شهوة وطبعاً يرى فى أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده، لكنه

يذهب من ذلك الى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده، ولا يقنع بمعارضته فى ثمرة من ثمار عمله، وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل، ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل إعمال الفكر فى استبطاء ضروب الحيل، ليعتدع وإن لم ينفع، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالته، ولا يبالي بإرساله الى عالم العدم بعد سلبه، فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة، أو الوصول الى لذية، فتح له الفكر باباً من الحيلة، أو هياً وسيلة لاستعمال القوة، فقام التناهب مقام التواهب، وحل الشقاق محل الرفاق، وصار الضابط لسيرة الاتسان: إما الحيلة وإما القهر.

اللذة الروحانية

هل وقف الهوى بالاتسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية، وتجالد أفراد طمعا فى وصول كل الى ما يظنه غاية مطلبه، وإن لم تكن له غاية؟؟.

كلا . . ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية، وكان من أعظم همم أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره عن تجميعه معهم جامعة ما، حسبما يتد إليه نظره، وقد بلغت هذه الشهوة حداً من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات، وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكاناً كاد لاتصعد إليه سائر اللذات، وهى من أفضل العوامل فى

إحراز الفضائل، وتقكين الصلات بين الافراد والأمم، لو صرفت فيما سبقت لأجله، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التي أشرنا إليها من التفاوت فى مراتب الادراك والهمة والعزيمة، حتى خيل للكثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته فى القلوب بإخافة الآمن وإزعاج الساكن وأشعار القلوب رهبة المخافة لتهييب الحرمة.

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بنى نظامهم وعلق بقاؤهم فى الحياة على تعاونهم، وقد بعضهم بعضاً فى الأعمال؟ أو لا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها، سبباً فى تفانيهم؟ لا ريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال، فلا بد للنوع الانسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو مايتوب منهاها.

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة الى العدل، وظنوا، كما ظن بعض العارفين ونطق به فى كلمة جليلة، أن العدل نائب المحبة.

نعم . . لا يخلو القول من حكمة، ولكن . . من الذى يضع قواعد العدل، ويحمل الكافة على رعايتها؟؟ . قيل: ذلك هو العقل، فكما كان الفكر والذكر والخيال يتابع الشقاء، كذلك تكون وسائل السعادة، وفيها مستقر السكينة، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصالة الحكم يذهب بكثير من الناس الى ماوراء حجب الشهوات، وتعلو بهم فوق ماتخيله المخاوف، فيعرفون لكل حق حرمة، ويميزون بين لذة مايفنى ومنفعة مايبقى، وقد جاء منهم أفراد فى كل أمة، وضعوا أصول الفضيلة، وكشفوا وجوه الرذيلة، وقسموا

أعمال الانسان الى ماتحضر لذته وتسوء عاقبته، وهو مايجب اجتنابه،
والى ماقد يشق احتماله ولكن تسر مغبته، وهو مايجب الأخذ به.
ومنهم من أنفق فى الدعوة الى رأيه نفسه وماله، وقضى شهيد اخلاصه
فى دعوة قومه الى مايحفظ نظامهم، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون
قواعد العدل، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها،
وبذلك يستقيم أمر الناس.

هذا قول لايجافى الحق ظاهره، ولكن . . هل سمع فى سيرة
الانسان، وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم
لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب؟ وهل كفى فى اقناع جماعه منه،
كشعب أو أمة، قول عاقلهم: أنهم مخطئون، وأن الصواب فيما يدعوه
إليه، وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء وأجلى من
ضرورة المحبة للبقاء؟؟ .

كلا . . لم يعرف ذلك فى تاريخ الانسان، ولا هو مما ينطبق على
سنته. فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الإدراك، وهم
مع ذلك يدعون المساواة فى العقول والتقارب فى الأصول، ولا يعرف
جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف من أمر الجاهل، ومن لم يكن
فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل، فمجرد البيان العقلى
لايدفع نزاعا، ولايرد طمأنينة، وقد يكون القائم على ماوضع من شريعة
العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها، فيذهب بالناس مذهب شهواته،
فتذهب حرمتها، ويتهدم بناؤها، ويفقد ما قصد بوضعها.

الحاجة الأخروية

أضف الى ماسبق من لوازم نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعورا هو الصق بالفريزة البشرية، وأشد لزوما لها: كل انسان، مهما علا فكره وقوى عقله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته، يجد من نفسه انه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة ما أنس منه القلبة عليه مما حوله، وانه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه قد لا يعرفها معرفة العارفين، ولا تتطرق إليها إرادة المختارين. تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها إلا الطريق التى حددت لنوعها، وهى طريق النظر، فذهب كل فى طلبها وراء راند الفكر، فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات، لكثرة نفعها أو شدة ضررها، ومنهم من قشلت له فى بعض الكواكب، لظهور أثرها، ومنهم من حجبت الأشجار والأحجار، لاعتبارات له فيها ، ومنهم من تبذت له اثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة، تتماثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع، فجعل لكل نوع إلها.

ولكن ... كلما رقى الوجدان، ولطفت الأذهان، ونفذت البصائر، ارتفع الفكر، وجلت النتائج، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة، واهتدى إلى أنها قدرة واجب الوجود، غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه، فلم يسلم من الخط

فيه، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الإهتمام بهديه، فبقى الخلف ذائعا والرشد ضائعاً.

اتفق الناس فى الإذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعتهم، ولكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة الى الإذعان له، اختلافاً كان أشد أثراً فى التقاطع بينهم، وإثارة أعاصير الشقاء فيهم من اختلافهم فى فهم النافع والضار، لغلبة الشهوات عليهم.

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش فى جملة، ولم يمنع من تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلاً من الإلهام الهادى الى ما يلزم لذلك، وإنما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ماسبق، كما فطر على الشعور بقاها تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته، ولم يفض عليه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهر ولاصفاته وإنما ألقى به فى مطارح النظر تحمله الأنكار فى مجاريها، وترمى به الى حيث يدري ولا يدري، وفى كل ذلك الويل على جامعته، والخطر على وجوده، فهل منى هذا النوع بالنقص، ورزى بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود؟؟ نعم . . هو كذلك، لولما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه.

الرسول والرسالة

الانسان عجيب فى شأنه يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب الملكوت، ويطاول بفكره أرفع معالم الجيروت، ويسامى بقوته ما يعظم

أن يسامى من قوى الكون الأعظم، ثم يصغر ويتضائل وينحط الى أدنى درك فى الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر مالم يعرف سببه ولم يدرك منشأه، لسر عرفه المستبصرون، واستشعرته نفوس الناس أجمعين. ومن ذلك الضعف قيد الى هداه، ومن تلك الضعة أخذ بيده الى مشرق سعادته. أكمل الواهب الجواد لجملته ما أقتضت حكمته فى تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفرادهِ، وكما جاد على كل شخص العقل المصروف للحواس، لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء وأثر فى الوقاية من غوائل الشقاء وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالإجماع.

من عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة، بل الراجع بها الى النفوس التى أفقرت منها، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد، غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه، وهى جهة الخضوع والاستكانة، فأقام له من بين أفرادهِ مرشدين هادين، ويميزهم من بينها بخصائص من أنفسهم، لا يشركهم فيها سواهم، وأيد ذلك، زيادة فى الإقناع، بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطرق على سوابق العقول، فيستخذى الطامح، ويدل الجامع، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع الى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غبه.

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله، ويدهشون المدارك بهواهر من آياته، فيحيطون العقول بما لامتدوحة عن الإذعان له، ويستوى فى

الركون لما يجيئون به المالك والملوك، والسلطان والصعلوك، والعامل والجاهل، والمفضل والفاضل، فيكون الأذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى. يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم، وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته، وأولئك هم الأنبياء المرسلون.

فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان، ومن أهم حاجاته فى بقائه، ومتزلتها من الترع منزلة العقل من الشخص، نعمة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وستكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد.

امكان الوحي

الكلام فى امكان الوحي يأتى بعد تعريفه، لتصوير المعنى الذى يراد منه، ولتعرف المعنى الحاصل بالمصدر، فيفهم معنى المصدر نفسه، ولا تعيننا ما تثيره الألفاظ فى الأذهان، ولنذكر من اللغة ما يناسبه:

يقال: وحيث إليه وأوحيت، إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، والوحي مصدر من ذلك. والمكتوب والرسالة وكل ما ألقىته الى غيرك ليعلمه. ثم غلب فيما يلقى الى الأنبياء من قبل الله : وقيل الوحي إعلام فى خفاء، ويطلق ويراد به الوحي.

وقد عرفوه شرعاً : أنه كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه.
أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه،
مع اليقين بأنه من الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول (٥١) بصوت
يتمثل لسمعة أو بغير صوت.

ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس
وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه
برждан الجوع والعطش والحزن والسرور (٥٢).

أما إمكان حدوث هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشاف
ماغاب من مصالح البشر عن عامتهم لن يختصه الله بذلك، وسهولة
فهمه عند العقل، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن
يدرك، ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم.

نعم . . يوجد في كل أمة، وفي كل زمان أناس يقذف بهم
الطيش والنقص في العلم الى ما وراء سواحل اليقين، فيسقطون في
غمرات من الشك في كل مالم يقع تحت حواسهم الخمس، بل قد يدركهم

(٥١) أي ما هو بواسطة .

(٥٢) أي أن الفرق بين الوحي والإلهام ان متلقي الوحي يستيقن أنه من الله
وليس ذلك شرطاً في متلقي الإلهام .

الرب فيما هو من متناولها، كما سبقت الإشارة، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا الى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان، فينسبون العقل وشئونه، وسره ومكنونه، ويجدون في ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهي، بل عن مجالس الحشمة التي تضمنهم الى الالتزام بما يليق، وتحجزهم عن مقارفة مالا يليق، كما هو حال غير الانسان من الحيوان، فاذا عرض عليهم شئ من الكلام في النبوات والأديان، وهم من أنفسهم هام بالإصغاء، دافعوا بما أوتوا من الإختيار في النظر، وانصرفوا عنه، وجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة، وتتبعها الشريعة، فيحرموا لذة مذاقوا، وهو مرض في الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم، ان شاء الله.

قلت: أى استحالة في الوحي؟ وأن ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره، من غير فكر ولا ترتيب مقدمات، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر، متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة.

نما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة، يعلم بعضها بعضاً، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط، بل لابد معه من التفاوت في الفطر التي لادخل فيها لاختيار الانسان وكسبه، ولاشبهة في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه، ولا تزال المراتب ترتقى في ذلك إلى ما لا يحصره العدد، وان من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريباً

فيسمى إليه، ثم يدركه، والناس دونه ينكرون بدايته، ويعجبون
لنهايته، ثم يأتون ماصار إليه كأنه من المعروف الذي لا ينزع، والظاهر
الذي لا يجاحد، فإذا أنكر منكر ثاروا عليه ثورتهم لى هادى الأمر
على من دعاهم إليه، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً
لى كل أمة الى اليوم.

فإذا سلم - ولا محيص عن التسليم - بما أسلفنا من المقدمات ،
لمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها ، عند الوصول
إليها، أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء
الجوهر، بأصل الفطرة، ما تستعد به، من محض الفيض الإلهى، لأن
تتصل بالأنق الأعلى، وتنتهى من الانسانية الى الذروة العليا، وتشهد
من أمر الله شهود العيان مالم يصل غيرها الى تعقله أو تحسسه
بعضى الدليل والبرهان، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً
على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ، ثم تصدر عن كل ذلك العلم
الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما حملت على إبلاغه إليهم، وأن
يكون ذلك سنة الله فى كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة...

يظهر برحمته من يختضه بعنايته، ليفى للإجتماع بما يضطر إليه
من مصلحة، الى أن يبلغ النوع الانسانى أشده، وتكون الأعلام التى
نصبها لهدايته وسعاده كافية فى إرشاده، فتختتم الرسالة ويفتح باب
النبرة، كما سنأتى عليه فى رسالة نبينا ﷺ.

الملائكة

أما وجود بعض الأرواح العالية، وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية فمما لا إستحالة فيه بعدما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا إليه العلم، قديمه وحديثه ، احتمال الوجود على ما هو الطف من المادة، وأن غيب عنا، فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقاً لشيء من العلم الإلهى وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه، فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته.

أما تمثل الصوت، وأشباح الأرواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الأنبياء مالا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم، فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل الى درجة المحسوس، فيصدق المريض فى قوله أنه يرى ويسمع، بل يجالذ ويصارع، ولاشئ من ذلك فى الحقيقة بواقع، فإن جاز التمثل فى الصور المعقولة، ولا منشأ لها إلّا فى النفس، وإن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية؟ وأن يكون ذلك لها عندما تنتزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس؟ وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة، لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم.

وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقته أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله، بل يتحتم، لأن

شأنهم فى الناس أيضاً غير الشئون المألوفة، وهذه المغايرة، من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم، والدليل على سلامة شهودهم، وصحة ما يحدثون عنه.

إن أمراض القلوب تشفى بدوائهم، وإن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم، ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل.

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظاً من الاتساع بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس، لهم مشاركة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال (٥٣) لا تنكر عليهم، لتحقق حقائقها فى الواقع، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء، صلوات الله عليهم، ومن ذاق عرف، ومن حرم انحراف.

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرمهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمججه الذوق السليم، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق

(٥٣) اشتهر بتحديثه والحديث عنه أفلاطون، وهو عنده مبدأ الوجود والمعرفة

كليهما .

فى سرائرهم المتلاكىء فى بصائرهم الى دعوة من يحف بهم الى مافيه
خير العامة وترويح قلوب الخاصة، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم،
ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم، ويسوء مآلهم ومآل من غرروا به
ولا يكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل العقول وفساد الأخلاق وإنحطاط
شأن القوم الذين رزقوا به، إلا أن يتداركهم الله بلفظه، فتكون كلمتهم
الحبيشة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، فلم يبق
بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بإمكان ما تنبؤوا به
بل وبوقوعه إلا حجاب من العادة، وكثيراً ما حجب العقول حتى عن
إدراك أمور معتادة.

وتقوى الوحش والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصداقه فيما يحكى عن ربه، ظاهر
للشاهد الذى يرى حاله، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات، وينحقق
بالعيان ما يغيبه عن البيان، كما سلف فى الوجه الأول من الكلام على
الرسالة.

أما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر، وهو كما تبين فى
علم آخر: رواية خبر عن شهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على
الكذب (عادة)، وآيته قهر النفس على البقين بما جاء فيه، كالاخبار
بوجود (مكة) أو بأن للصين عاصمة تسمى (بكين). وسبب استحالة

التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة (٥٤)، وخلوه من عوارض تضعف الثقة به، ومرجع كل ذلك الى العدد وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر.

١ : لاتزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الأخبار يخلص اليقين بالمخبر به، وإنما النزاع فى اعتبارات تتعلق به، ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كإبراهيم وموسى وعيسى، ومما جاء به الخبر، أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطانا، ولا بالأكثر مالا، ولم يختصهم أحدا بالعناية بهم لتعليمهم علم مادعوا اليه، وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس، وتنبو عنهم الأنظار، ومع ذلك، واستحكام السلطان لغيرهم، ووقرة المال كديبه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم، قاموا بدعوة الى الله على رغم الملوك وأجنادهم، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم، وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السماوات والأرض ما أراد شرعه للناس، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة، ثم ثبتت فى الكون شرائطهم ثبات الفريزة فى الفطرة، وكان الخبر لأعظم فى اتباع ما جاؤا به.

حالتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها، ورزأهم الضعف وغالهم الشقاء ما انحرفوا عنها، وخلطوا فيها، فهذا وما أقاموه

(٥٤) مثل أن لا يكون الخبر ممتنا عقلا، وأن يكون المخبره محسوسا

من الأدلة عند التحدى لا يصح معه، فى العقل، أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله، ولا فى دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس. على أن من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لقالة أثر فى العقول. والباطل لابقاء له إلّا فى الغفلة عنه، كالنبات الخبيث فى الأرض الطيبة ينبت بإهمالها وينمو بإغفالها، فإذا لامستها عناية الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء.

ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء قامت فى العالم الانسانى ماشاء الله فما قدر لها، مقام سائر قواه، مع كثرة المعارضين، وقوة سلطان المغالبيين، فلا يمكن أن يكون اسها الكذب ودعامتها الحيلة وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائماً فى خلال ما لحق بها المتبدعون، أما بقية الرسل من يجب علينا الإيمان بهم فيكفى فى إثبات نبوتهم اثبات رسالة نبينا ﷺ، فقد أخبرنا برسالتهم، وهو الصادق فيما بلغ به، وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد ﷺ فى باب على حدته ان شاء الله.

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين ما تقدم فى حاجة العالم الانسانى الى الرسل، أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها، ونعمة من نعم واهب

الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه، ولكنها حاجة روحية، وكل ما لامس الحس منها فالتقص في الروح، وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة، أو تقويم ملكتها، أو إبداءها ما فيه سعادتها في الحياتين، أما تفصيل طرق المعيشة والحدق في وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه، إلّا من وجهة العظة العامة، والارشاد الى الاعتدال فيه، وتقرير ان شرط ذلك كله أن لا يحدث ريباً في الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالماً حكيماً، متصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به، وباستواء نسبة الكائنات إليه في أنها مخلوقة له، وصنع قدرته، وانما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال، وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد في شريعتها.

يرشدون العقل الى معرفة الله، وما يعرف من صفاته، ويبينون الحد الذي يجب أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان، على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة.

يجمعون كلمة الحق على إله واحد، لافرقه معه، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده، وينهضون نفوسهم الى التعلق به في جميع الأعمال والمعاملات، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات، تذكراً لمن ينسى، وتزكية مستمرة لمن يخشى، تقوى ماضعف منهم، وتزيد المستيقن يقيناً.

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم، وتنازعت مصالحهم ولذاتهم، فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع، ويؤيدون بما يبلغون عنه ماتقوم به المصالح العامة، ولاتفوت به المنافع الخاصة، يعودون بالناس الى الألفة، ويكشفون لهم سر المحبة، ويستلفتونهم الى أن فيها انتظام شمل الجماعة، ويقرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم، ويشعروها أفئدتهم، يعلمونهم لذلك أن برعى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه، وأن لا يتجاوز في الطلب حده، وأن يعين قلوبهم ضعيفهم، ويعد غنيهم فقيرهم، ويهدي راشدهم ضالهم، ويعلم عالمهم جاهلهم.

يضعرون لهم، بأمر الله، حدوداً عامة، يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم. كاحترام الدماء البشرية إلّا بحق، مع بيان الحق الذي يبيع تناوله، واحترام الأعراض، مع بيان ما يباح وما يحرم من الإيضاع، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود، والرحمة بالضعفاء، والإقدام على نصيحة الأقوياء، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء.

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية الى طلب الرغائب السامية. آخذين في ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب، والانتذار والتبشير، حسبما أمرهم الله جل شأنه.

يفصلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم، وما يعرضهم لسخطه عليهم، ثم يحيطون ببيانهم بنبأ الدار الآخرة، وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبي لمن وقف عند حدوده، وأخذ بأوامره، وتجنب الوقوع في محظيره. يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده في العلم به، مما لو صعب على العقل اكتنافه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده .

بهذا تطمئن النفوس، وتتلج الصدور، ويعتصم المرءء بالصبر انتظاراً لجزيل الأجر، وإرضاءً لمن بيده الأمر، وبهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الانساني لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله الى اليوم .

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات، فليس مما جاعوا له تعليم التاريخ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب، ولا بيان ماختلف من حركاتها، ولا ما استكن من طبقات الأرض، ولا مقادير الطول فيها. والعرض، ولا ما تحتاج اليه النباتات في نموها، ولا ما تقتقر اليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها، وغير ذلك مما وضعت له العلوم، وتساهقت في الوصول الى دقائقه الفهوم، فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الادراك، يزيد في سعادة المحصلين، ويقضى فيه بالنكد على المقصرين، ولكن كانت سنة الله في ذلك أن يتبع طريقة

التدرج فى الكمال، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الاجمال بالسعى فيه، وما يكفل التزامه بالوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء.

أما ما ورد فى كلام الأنبياء من الاشارة الى شيء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض، فإنما يقصد منه النظر الى مافيه من الدلالة على حكمة مبدعة، أو توجيه الفكر الى الغوص لإدراك أسرارهِ وبيدائعه، ولفتهم، عليهم الصلاة والسلام، فى مخاطبة أهمهم لايحوز أن تكون فوق مايفهمون، وإلا ضاعت الحكمة فى إرسالهم؛ ولهذا قد يأتى التعبير الذى سبق الى العامة بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة، وكذلك ماوجه الى الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة، وهذا القسم أقل ماورد فى كلامهم.

على كل حال لايحوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان، بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان، مطالباً لها باحترام البرهان، فارضاً عليها أن تبذل مااستطيع من الجهد فى معرفة ماين يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد. ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لايفرّها له رب الدين.

اعتراض مشهور

قال قائل: أن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر، وكمالاً لنظام اجتماعهم، وطريقاً لسعادتهم الدنيوية والأخروية، فما بالهم لم يزالوا أشقياء، عن السعادة بعداء، يتخالفون ولا يتفقون، يتقاتلون ولا يتناصرون، يتناهبون ولا يتناصفون، كل يستعد للوثبة ولا ينتظر إلا مجيء النوبة، حشو جلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع، عد أهل كل ذى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه، واتخذوا منه سبباً جديداً للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم، وتختلف مذاهبهم فى فهمه، وتتفارق عقولهم فى عقائدهم، ويثور بينهم غبار الشر، وتتشبث أهواؤهم بالفتن، فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم، الى أن يغلب قلوبهم ضعفهم، فيستقر الأمر للقوة لا للحق والدين. . فما هو الدين الذى تقول إنه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سبباً فى الشقاق، ومضراً للضعيفة، فما هذه الدعوى وما هذا الأثر؟؟

نقول فى جوابه نعم . . كل ذلك قد كان، ولكن بعد زمن الانبياء وانقضاء عهدهم، ووقوع الدين فى أيدي من لا يفهمه، أو يفهمه ويغفل فيه، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعهم، وإلا فقل لنا: أى نبي لم يأت أمتة بالخير الجم والفيض الأعم؟ ولم يكن دينه رافياً بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها فى أفرادها وجمليتها؟؟

أظن أنك لاتخالفنا فى أن الأعظم من الناس، بل الكل . إلّا قليلا. لا يفهمون فلسفة (أفلاطون)، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق (أرسطو). بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما أدركوا منها إلّا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ولا فى اصلاح العمل، فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لاتفارقها من تلاعب الشهوات بها، ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع إليها، فأى الطرق أقرب إليك فى مهاجمة شهواتهم وردّها الى الاعتدال فى رغائبها.

من البديهى أنك لاتجد الطريق الأقرب فى بيان مضار الإسراف فى الرغب وفوائد القصد فى الطلب، وما ينحو ذلك، ممّا لا يصل إليه أرباب العقول السامية إلّا بطويل النظر. وانما تجد أقصر الطرق وأقومها أن تأتى إليه من نافذة الوجدان المطة على سر القهر المحيط به من كل جانب، فتذكره بقدرة الله الذى وهب ما وهب، الغالب عليه فى أدنى شئونه إليه، المحيط بما فى نفسه، الإخذ بأزمة هممه، وتسوق إليه من الأمثال فى ذلك ما يقرب الى فهمه، ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر، ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة، وتنش روحه بذكر رضا الله إذا استقام، وسخطه عليه إذا تقحم، عند ذلك يخشع منه القلب، وتدفع العين، ويستخذى الغضب، وتخمد الشهوة، والسامع لم يفهم من ذلك كله إلّا أنه يرضى الله وأوليائه إذا أطاع، ويسخطهم إذا عصى، ذلك هو المشهود من حال البشر، غابهم وحاضرهم، ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم.

كم سمعنا أن عيوناً بكت، وزفرات صعدت، وقلوباً خشعت لواعظ الدين؟ لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصاح الأدب وزعماء السياسة؟؟

متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يقلب الخبير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك؟ هذا أمر لم يعهد في سير البشر، ولا ينطبق على فطرهم، وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد، ولا قيام للأميرين إلا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى العوامل في أخلاق العامة ، بل والخاصة ، وسلطاته على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذي هو خاصة نوعهم.

سوء الاستعمال

قلنا: ان منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص، أو منزلة العلم المنصوب على الطريق السلوك، بل نصحنا إلى ما فوق ذلك ونقل: منزلة السمع والبصر.

أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر؟ وبين الطريق السهلة السلوك والمعاير الوعرة؟ ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره، فيتردى في هاوية يهلك فيها، وعيناه سليمتان تلمعان في وجهه، يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج . وقد

يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء، ويعلم ذلك الباغي في رأيهِ من أهل الشر، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة، ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها.

ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله، كذلك الرسل، عليهم السلام، أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة، فمن الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة، ومنهم من غلط في فهمها أو انحرف عن هديها فانكب في مهاوى الشقاء، فالدين هاد، والنقص يعرض لمن دعوا إلى الاهتداء به، ولا يظعن نقصهم في كماله، واشتداد حاجتهم إليه ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٥٥).

ألا إن الدين مستقر السكينة، ولجأ (٥٦) الطمأنينة، به يرضى كل بما قسم له، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة في الكون، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه في العلم والفضيلة، وإلى من دونه في المال والجاء، اتباعاً لما وردت به الأوامر الإلهية.

(٥٥) البقرة: ٢٦.

(٥٦) اللجأ مصدر معناه: الحصن والملاذ.

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعى الاختيارية. الدين قوة من أعظم قوى البشر، وإنمّا قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى، وكل ما وجه الى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه، وما عليهم فى إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ويرجعوا به الى أصوله الطاهرة الأولى، ويضعوا عنه أوزار البدع، فترجع إليه قوته، وتظهر للأعمى حكمته.

ربما يقول قائل: إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأى القائلين بإهمال العقل بالمرة فى قضايا الدين، وبأن أساسه هو التسليم المحض، وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام.

فنقول: لو كان الأمر كما عساه أن يقال، لما كان الدين علماً يهتدى به، وإنمّا الذى سبق تقريره هو أن بالعقل وحده لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها، بل لابد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلاً، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتهى على العقل من وسائل السعادات، والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله، والإذعان لما تكشف من معتقدات وحدود أعمال. كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك، وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منها الى معرفتها، وأنها آتية

من قبل الله، وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق
بجميع ما جاء به، وإن لم يستطع الوصول الي كنه بعضه، والنفوذ الى
حقيقته، ولا يقتضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى الى
مثل الجمع بين التقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن
واحد، فإن ذلك مما تنتزه النبوات عن أن تأتى به، فإن جاء ما يروهم
ظاهره ذلك فى شىء من الوارد فيها، وجب على العقل أن يعتقد أن
الظاهر غير مراد، وله الخيار بعد ذلك فى التأويل، مسترشداً ببقية
ما جاء على لسان من ورد التشابه فى كلامه، وفى التفويض الى الله
فى علمه، وفى سلفنا الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثانى.

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا، فى هذه الوريقات، أن نلم بتاريخ الأمم عامة،
وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية، لنبين كيف كانت
حاجة سكان الأرض ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك، وتزلزل قواعد
سلطانهم الغاشم، وتخفف من أبصارهم المعقودة بعنان السماء الى من
دونهم من رعاياهم الضعفاء، والى نار تنقض من سماء الخلق على آدم
(٥٧) الأنفس البشرية، لتأكل ما اعشوشيت به من الأباطيل القاتلة

(٥٧) من معانيه السورة والسواد .

للعقول، وصبيحة فصحي تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين وتنبه
 الرؤسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين، والهداة
 الضالين، والقادة الغارين، وبالجملّة تزب بهم الى رشد يقيم الانسان
 على الطريق التى سنها الله له: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ (٥٨).
 ليبلغ بسلوكها كماله، ويصل على نهجها الى ما أعد فى الدارين له .
 ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه
 مؤرخو ذلك العهد نظراً إمعان وإنصاف: كانت دولتنا العالم، دولة الفرس
 فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب فى تنازع وتجادل مستمر، دماء بين
 العالمين مسفركة، وقوى منهوكة، وأموال هالكة، وظلم من الإحن
 حالكة، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفة والتفنن فى
 الملاذ بالغة حد ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء، والقواد
 ورؤساء الأديان من كل أمة، وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند
 حد، فزادوا فى الضرائب، وبالغوا فى فرض الامتادات، حتى أثقلوا
 ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها،
 وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل فى
 الاحتياط لسلب الغافل، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب
 ضروب من الفقر، والذل والاستكانة ، والحرق والاضطراب، لفقد الأمن على
 الأرواح والأموال.

(٥٨) الإنسان: ٣

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم، فعاد هؤلاء كأشباح،
اللاعب يديرها من وراء حجاب، ويظنها الناظر إليها من ذوى الألباب،
ففقده بذلك الاستقلال الشخصى، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا
لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم، كما هو الشأن فى العجماءات مع من
يقتنيها.

ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل
شهواتها، ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها، فلم يفارقتها الحذر
من أن بصيص النور الإلهى، الذى يخالط الفطر الإنسانية، قد يفتق
الغلف التى أحاطت بالقلوب، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول،
فتتهدى العامة الى السبيل، ويشور الجم الغفير على العدد القليل،
ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحجاً من الأوهام، ويهيئوا
كسفاً من الأباطيل والخرافات، ليقتذفوا بها فى عقول العامة، فيغلظ
الحجاب، ويعظم الرين، ويختنق بذلك نور الفطرة، ويتم لهم ما يريدون
من المغلوبين لهم.

وصرح الدين، بلسان رؤسائه، إنه عدو العقل، وعدو كل ما يشره
النظر، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس، وكان لهم فى المشارب الوثنية
يتابع لاتنضب ومدد لاينفد.

هذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم، وذلك كان شأنهم فى
معايشهم، عبيد أذلاء حيارى فى جهالة عمياء، اللهم إلا بعض شوارد

من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت الى بعض الأذهان،
ومعها مقت الحاضر، ونقص العلم بالغابر، ثارت الشبهات على أصول
العقائد وفروعها، بما أنقلب من الوضع، وانعكس من الطبع، فكان يرى
الدنس في مظنة الطهارة، والشره حيث تنتظر القناعة، والذعارة حيث
ترجى السلامة، والسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب، وانصرافه
لأول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين، فاستولى الاضطراب على
المدارك، وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشرعة معاً ،
وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين في شعوب متعددة، وكان ذلك وبلاً
عليها فوق مارزئت به من سائر الخطوب.

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات، خاضعة
للشهورات، فخر كل قبيلة في قتال أختها، وسفك دماء أبطالها، وسبى
نساءها، وسلب أموالها، تسوقها المطامع الى المعامع، ويزين لها
السيئات فساد الاعتقادات، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً
صنعوا أصنامهم من الحلوى، ثم عبدوها، فلما جاعوا أكلوها!! وبلغوا
من تضعف الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن ،
أو تنصلا من نفقات معيشتهم، وبلغ الفحش بهم مبلغاً لم
يعد معه للعفاف قيمة، وبالجمله: فكانت ربط النظام
الاجتماعى قد تراخت عقدها في كل أمة، وانقصمت عراها عند كل
طائفة.

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم،
يوحى إليه رسالته، ويعنحه عنايته، ويغده من القوة بما يتمكن معه من
كشف تلك الغم، التي أظلت رموس جميع الأمم؟؟.

نعم. - كان ذلك، وله الأمر من قبل ومن بعد ، فى الليلة الثانية
عشرة من ربيع الأول، عام القيل (٢٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد
المسيح عليه السلام). ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم
القرشى، بمكة، ولد يتيماً، توفى والده قبل أن يولد، ولم يترك له من
المال إلا خمس جمال وبعض نعاج وجارية، ويروى أقل من ذلك. وفى
السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً، فاحتضنه جده عبد المطلب،
وبعد سنتين من كفالته توفى جده فكفله من بعده عمه أبوطالب، وكان
شهماً كريماً غير أنه من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله، وكان ﷺ
من بنى عمه وصبيبة قومه كأحدهم، على ما به من يتم فقد فيه الأبوين
معاً ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول، ولم يقد على تربيته مهذب،
ولم يعن بتشقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية، وعشراء من
حلفاء الوثنية، وأولياء من عبدة الأوثام، وأقرباء من حفدة الأصنام،
غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل، بدناً وعقلاً وفضيلة وأدباً ، حتى
عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه، بالأمين.

أدب الهى لم تحجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء،
خصوصاً مع فقر القوام، فاكتمل ﷺ كاملاً والقوم ناقصون، رقيقاً

والناس منحطون، موحداً وهم وثنيون، سلماً وهم شاعبون، صحيح الاعتقاد وهم واهمون، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون، وعن سبيله عادلون.

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بماتراه من أول نشأته الى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه، لاسيما إن كان من ذوى قرابته وأهل عصبته، ولاكتاب يرشده، ولا أستاذ ينهيه، ولاعضداً ذا عزم يؤيده، فلو جرى الأمر فيه على جاری السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع الى مخالفتهم اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده، ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بفضت إليه الوثنية من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وما جاء في الكتاب من قوله : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (٥٩) لايفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد، أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم، حاش لله، إن ذلك لهو الإفك المبين، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل الى ماهدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه الى ماكانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته.

(٥٩) الضحى: ٧.

ووجد شيئاً من المال يسد حاجته . (وقد كان له فى الاستزاده منه مايرفه معيشته) بما عمل لحديجة ، رضى الله عنها ، فى تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ماكان عليه أعظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا ، ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ماكان يسلكه مثله فى الوصول الى ماترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ، وغما فيه حب الانفراد والانتقطاع الى الفكر والمراقبة والتحنث (٦٠) بمناجاة الله تعالى . والتوسل إليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخلص قومه ، ونجاة العالم من الشر الذى تولاه ، الى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهى ، وتجلى عليه النور القدس ، وهبط عليه الروحى من المقام العلى ، فى تفصيل ليس هذا موضعه .

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بماسلب من ملكه ، وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفى قناعة بما وجده من شرف النسبة الى المكان ، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف " أبرهة " الحبشى (٦١) على ديارهم ، جاء الحبشى ليتقم من

(٦٠) أي التمدد بمناجاة الله .

(٦١) الملقب بالاشرم ، حكم اليمن العربية لحساب ملك الحبشة . وكان فى الاصل عبدا لرجل روماني ، واستقل باليمن عن الحبشة فترة من الزمن ، وكان مسيحيا بدأ حكمه لهذه البلاد سنة ٥٣٦ م . أنظر دائرة المعارف الاسلامية .

العرب بهدم معبدهم العام ، ويبتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومهم ، وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب فى بعض قریش لمقابلة الملك ، فاستدناه وسأله حاجته فقال: هى أن ترد الى مائتى بعير أصبتها ، فلامه الملك على المطلب الحقيق وقت الخطب الخطير ، فأجابه: أنا رب الإبل أما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ماينتهى إليه الاستسلام ، وعبد المطلب فى مكانه من الرئاسة على قریش ، فأين من تلك المكانة محمد ﷺ فى حاله من الفقر ، ومقامه فى الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكا أو يطلب سلطانا ؟ . . لا مال ، لا جاه ، لا جند ، لا أعوان ، لا سليقة فى الشعر ، لا براعة فى الكتاب ، لا شهرة فى الخطاب ، لا شئ كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة ، أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة .

ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذى أعلى رأسه على الرؤوس ؟ ما الذى سما بهمته على الهمم حتى إنتدب نفسه لإرشاد الأمم ، وكفالاته لهم كشف الغمم ، بل وأحياء الرمم ؟ .

ماكان ذلك إلا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم الى مقوم لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية ، ينصره فى عمله ، ويده فى الانتهاء الى أملة قبل بلوغ أجله . ما هو إلا الوحى الإلهى يسعى نوره بين يديه ، يضىء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل . ما هو إلا الوعد السماوى قام لديه مقام القائد والجندى .

أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة الى التوحيد والاعتقاد بالعلی المجید، والکل مابین وثنية متفرقة ودهرية وزندقة . . نادى فی الوثنيين بترك أوثانهم، ونبد معبوداتهم، وفی المشبهين المنغمسين فی الخلط بین اللاهوت الأقدس و بین الجسمانيات بالتطهر من تشبيهم، وفی التنويه بإفراد اله واحد بالتصرف فی الأكوان ، ورد كل شيء فی الوجود إليه، أهاب بالطبيين ليمدوا بصائرهم الى ماوراء حجاب الطبيعة فيتوروا سر الوجود الذى قامت به. صاح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة فی الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والأرض، والقايض على أرواحهم فی هياكل أجسادهم. تناول المتحلين منهم لمربة التوسط بین العباد و بین ربهم الأعلى ، بین لهم بالدلیل وكشف لهم بنور الوحي أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين به، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية الى أدنى سلم من العبودية، والاشترك مع كل ذی نفس إنسانية فی الاستعانة برب واحد، يستوى جميع الخلق فی النسبة اليه، لايتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة. وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له، ويحلوا اغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل، وقطعتهم دون الأمل. مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ماأودعته من الشرائع الإلهية، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم، وشدد النكير على المحرفين لها، الصارفين لألفاظها الى غير ما قصد من وحيها،

اتباعاً لشهواتهم، ودعاهم الى فهمها ، والتحقق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم. واستلقت كل انسان الى مأودع فيه من الواهب الإلهية، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً، عامة وسادات، الى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل، وميزه بالفكر، وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده إليه عقله وفكره، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان، وسلطهم على فهمها، والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة، وأقדרهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع. والحاجة الى أولئك المصطفين إنما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه، وليست في الاعتقاد بوجوده، وقرر أن لاسطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل، ثم الانسان بعد ذلك يذهب بإرادته التي ماسخرت له بمقتضى الفطرة.

دعا الإنسان الى معرفة أنه جسم وروح، وأنه بذلك من عالمين مختلفين، وإن كانا ممتزجين، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ماقررت له الحكمة الإلهية من الحق. دعا الناس كافة الى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الأخرى ، وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص لله في العبادة والإخلاص للعباد في العدل والنصيحة والإرشاد.

قام بهذه الدعوة العظمى وحده، ولا حول له ولا قوة، كل هذا كان منه والناس أحماء ما ألقوا، وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة، أعداء ما جهلوا، وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة، كل هذا والقوم حواله أعداء أنفسهم، وعبيد شهوتهم، لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم، والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف.

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة، ويناضلهم بالدليل، ويأخذهم بالنصيحة، ويزعجهم بالزجر، وينبههم للعبث، ويحوطهم مع ذلك، بالموعظة الحسنة، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه، عادل في أمره ونهيته، أو أب حكيم في تربية أبنائه، شديد الحرص على مصالحهم، رؤوف بهم في شدته، رحيم في سلطته.

ما هذه القوة في ذلك الضعف؟؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز؟ ما هذا العلم في تلك الأمية؟؟ ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية؟؟ ان هو إلّا خطاب الجبروت الأعلى، قارعة القدرة العظمى، نداء العناية العليا، ذلك خطاب الله القادر على كل شيء، الذي وسع كل شيء، رحمة وعلمًا، ذلك أمر الله الصادع، يترع الأذان، ويشق الحجب، ويمزق الغلف (١٦٢)، وينفذ إلى القلوب على لسان من اختاره ليتنطق به، واختصه

(١٦٢) مفردا غلاف .

بذلك، وهو أضعف قومه، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه، بعيدا عن الظنة، برئنا من التهمة! لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه.

أى برهان على النبوة أعظم من هذا ١١٢ . . أمى قام بدعوة الكاتين الى فهم مايكتبون ومايقروون؟ بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء، ليمحصوا ماكانوا يعلمون ١٢ فى ناحية عن يتابع العرفان جاء يرشد العرفاء ١٣ ناشئ بين الواهين هب لتقويم عرج الحكماء؟ غريب فى أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليفة والنظر فى سنته البديعة، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها ١٤.

ماهذا الخطاب المفحم؟ ماذلك الدليل الملجم؟.. أقول ماهذا بشرا، ان هذا إلاملك كريم ١٤ لا، لا أقول، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه. نبى صدق الأنبياء ، ولكن لم يأت فى الإقناع برسائته بما يلهى الأبصار، أو يحير الحواس، أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحججة وآية الحق الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق إليه الريبة، أن النبى ﷺ كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال إنه أنزل عليه، وأن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف، المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين الى اليوم. كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبل، نقب على الصحيح منها، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها، ونبه على وجوه العبرة فيها. حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم، وما كان بينهم وبين أمهم، وبراهم مما رماهم به أهل دينهم، المعتقدون برسالتهم. آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم، وما خلطوا فى أحكامهم، وما حرفوا، بالتأويل، فى كتبهم. وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها، وقام بها العدل، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره، ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية، كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم، ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب، وتهش لاستقبالها العقول، وتنصرف وراعى الهمم انصراقها فى السبيل الأمم.

نزل القرآنُ في عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب، وأغرزها مادة في الفصاحة، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل، ونتائج الفطنة والذكاء، هو الغلب في القول، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الإذعان من العقول، وتفانيهم في المفاخرة بذلك لايحتاج إلى الإطالة في بيانه.

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي ﷺ والتماسهم الوسائل، قريبها وبعيدها، لإبطال دعواه، وتكذيبه في الأخبار عن الله، وإتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته، والأمراء الذين يدعوهن السلطان إلى مناورته؛ والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعتة، وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته، وانهالوا بقواهم عليه، استكباراً عن الخضوع له، وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم، وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم، وهو مع ذلك يخطئ آراءهم، ويسفد أحلامهم، ويحتقر أصنامهم، ويدعوهم إلى مالم تعهده أيامهم، ولم تخفق لمثله أعلامهم، ولا حاجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديدهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب، أو بعشر سور من مثله. وكان في استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء البلغاء ماشاءوا، ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به، ليبطلوا الحجة، ويفحموا صاحب الدعوة :


جاءنا الخير المتواتر أنه مع طول زمن التحدى، ولجأ القوم فى التعدى أصيبوا بالعجز، ورجعوا للخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام، وقضى حكمه العلى على جميع الأحكام. أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمى أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر؟ وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى، والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى، صلوات الله عليه .

هذا وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون، كالحير فى قوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ، فى أدنى الأرضِ وهُم مِّن بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فى بضع سنين ﴿٦٣﴾ ، وكالوعد الصريح فى قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿٦٤﴾ الآية، وقد تحقق جميع ذلك وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته.

ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء فى تحدى العرب به، واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله، مع سعة البلاد العربية، ووفرة سكانها، وتباعد أطرافها، وانتشار دعوته على لسان

﴿٦٣﴾ الروم: ٤٢ .

﴿٦٤﴾ النور: ٥٥ .

الوافدين الى مكة من جميع أوجانها، ومع أنه لم يسبق له  السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها، وقصور العلم البشرى، عادة، عن الإحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالأمة العربية، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا، ومن الصعب، بل من المتعذر، أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه، وشرط كالذى شرطه على نفسه، لقلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الأرض لاتخلو من صاحب قوة مثل قوته، وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم والخبير هو الناطق على لسانه، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له ويلوغ ما حثهم عليه.

يقول واهم: ان العجز حجة على من عجز، فإن العجز هى حجة الافحام وإلزام الخصم، وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره، فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه، فلا يفحمه الدليل، بل يجد الى إبطاله أقرب سبيل.

وهو هم يضمحل بما قدمناه من البيان، اذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلّا أنه يوجد عن كل منهما عجز، وشتان بين المعجزين، وبعد ما بين وجهتى الاستدلال فيهما، فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى، وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته ، البلاغة ، وقلنا القوى البشرية ، لأنه جاء بلسان عربى، وقد عرا الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة، وكان حال العصر من البلاء:

كما ذكرناه، وحال القوم في العناد كما بينا، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم، فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانياً يبلغ من قوة البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم، وتقاصر القوى عن ذلك، مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية، وامتنياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس ممّا اعتيد صدوره عن البشر، فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه.

ثم ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة، ممّا يدل على الثقة من أمره، مع ما سبق تعداده من الأمور التي لا يمكن معها لعادل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الأجل، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة، لا رجل يعظ وينصح على العادة.

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمداً ﷺ رسول الله إلى خلقه، فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة، وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الأنبياء، فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك.

الدين الاسلامى او الاسلام *

بقى علينا أن نشير الى وظيفة الدين الإسلامى، ومادعا إليه، على وجه الإجمال، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة، والسر فى كون النبى ﷺ خاتم المرسلين، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

هو الدين الذى جاء به محمد ﷺ وعقله من وعاء عنه من صحابته ومن عاصرهم، وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلاخوف ولااعتساف فى التأويل، ولاميل مع الشيع، وأتى مجمله فى هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه. وماستندى فيما أقول إلا الكتاب، والسنة القوية، وهدى الراشدين.

* من هنا حتى ما قبل موضوع (التصديق بما جاء به محمد ﷺ) من رسالة التوحيد هذه. نشر أيضاً فى كتاب (الاسلام والرد على منتقديه) ص ١١٨، ١١٩ طبعة لقاهرة سنة ١٩٢٨م. ولقد راجعنا النسختين وقومنا منهما النص.

التوحيد

جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله،
وتزيهه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحداً
متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفاة العلية كالعلم، والقدرة،
والارادة، وغيرها، وعلى أنه لا يشبهه شىء من خلقه، وأن لاتسبة بينه
وبينهم إلا أنه مرجدهم، وأنهم له وإليه راجعون:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٦٥) .

وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها، له معان
عرفها العرب المخاطبون بالكتاب، ولم يشبهوا فى شىء منها، وان
ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من
العالمين، وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم
وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال، على سنة له فى
ذلك سنّها فى علمه الأزلى، الذى لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه
التغيير، وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشىء من ذلك إلا
ببرهان ينتهى فى مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى
لاتنقص عنه فى الوضوح، بل قد تعلوه، كاستحالة الجمع بين النقيضين

(٦٥) الإخلاص: ١ - ٤ .

أو ارتفاعهما معا ، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلاً ، وقضى على هؤلاء . كغيرهم ، بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون ، وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو بإذن خاص ، ويتيسر خاص ، في موضع خاص ، لحكمة خاصة ، ولا يعرف شأن الله في شيء من هذا إلا ببرهانه ، كما تقدم .

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٦٦) ، والشكر عند العرب معروف أنه: تصريف النعمة فيما كان الإنعام بها لأجله ، دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس ، وغرز فينا من القوى ما نصرفه في وجوهه ، يحض تلك الموهبة ، فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها . وأما ما تتحير فيه مداركنا ، وتقصر دونه قوانا ، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها ، أو ناصر يدها فيما أدركها العجز عنه ، على أنه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها ، وكان لا بد من الخضوع له ، والرجوع إليه ، والاستعانة به ، فذلك انما يرد الى الله وحده ، فلا يجوز أن تخشع إلا له ولا أن تطمئن إلا إليه ، وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الآخرة لا يسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات ، ولا في غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين .

(٦٦) النحل: ٧٨ .

اجتثت بذلك جذور الوثنية وماوليتها فما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل أو العبارة واللفظ، لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة، تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لاتنفك عن تلك العقيدة الباطلة، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم، وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين، وإبيح لكل أحد، بل فرض عليه أن يقول كما قال ابراهيم: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧) ، وكما أمر رسول الله ﷺ ، أن يقول ﴿قُلْ إِنِّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٦٨) ، تجلّت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تقعدها بارادة غيره، سواء كانت ارادة بشرية ظن أنها شعبة من الارادة الإلهية، أو أنها هى ، كإرادة الرؤساء المسيطرين أو إرادة موهومة اخترعها الخيال، كما يظن فى لقيور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها ، وافتكت

(٦٨) الاتعام : ٧٩ .

(٦٧) الاتعام : ١٦٢

عزيمته من أسر الوسائط، والشفعاء والمتكهنه والعرفاء، وزعماء السيطرة على الأسرار، ومنتحلي حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله، الزاعمين أنهم واسطة النجاة، وبأيديهم الإشقاء والإسعاد. وبالجمل، فقد اعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين، وصار الانسان بالتوحيد، عبداً لله، حراً من العبودية لكل ماسواه، فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا على في الحق ولا وضع، ولا سافل ولا رفيع، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم، ولا يقرهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمخض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة من كان يزعم الحق فيها بصفته وربته ليعمله وخدمته.

مكانة العمل

طالب الإسلام بالعمل لكل قادر عليه، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٦٩) ، ﴿وَأَنْ لِّبِئْسَ لِلِإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٧٠) ، وأباح لكل أحد أن يتناول من

(٦٩) الزلزلة: ٧، ٨.

(٧٠) النجم: ٢٩.

الطببات ماشاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة، ولم يحظر عليه إلّا ما كان ضاراً بنفسه، أو بمن يدخل فى ولايته، أو ماتعدى ضرره الى غيره، وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة، فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله، واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتمثر بها، إلا حقاً محترماً تصطدم به.

حوية الفكر . . والتجديد

انحى الاسلام على التقليد، وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر، فبددت فبالقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، و نسفت ماكان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم. صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة (٧١) من سدنة هياكل الوهم: « ثم فإن الليل حالك، والطريق وعرة والغاية بعيدة، والراحة كليلّة والأزواد قليلة » ١١.

علا صوت الإسلام على وساوس الطعام ، ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام، أعلام الكون ودلائل الحوادث، وأنما المعلمون منبهون ومرشدون، وإلى طرق

(٧١) الهينمة :صوت خفى .

البحث هادون، صرح فى وصف أهل الحق بأنهم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (٧٢)، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال، من غير فرق بين القائلين، ليأخذوا بما عرفوا حسنه، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرهم وينهون، ووضعهم تحت أنظار رؤسبهم، يخبرونهم كما يشاؤون، ويتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون. صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء، وماتوارثه عنهم الأبناء، وسجل الحق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مسميا لعقول على عقول، ولا لأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والارتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه، وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم، وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٧٣) وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق

(٧٢) الزمر ١٨ .

(٧٣) الأنعام: ١١.

عن دائب، عاب أرباب الأديان في اقتفائهم أثر آباءهم ووقوفهم عند ما
 اختطته سير أسلافهم، وقولهم: ﴿بَلْ تَتَّبِع مَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
 آبَاءَنَا﴾ (٧٤)، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّة وَإِنَّا عَلَى
 آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ (٧٥).

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل
 تقليد كان استعبده، ورده الى مملكته يقضى بحكمه وحكمته، مع
 الخضوع مع ذلك لله وحده، والوقوف عند شريعته، ولاحد للعمل في
 منطقة حدودها، ولانهاية للنظر يمتد تحت بنودها.

بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم
 منهما وهما: استقلال الإرادة، واستقلال الرأي والفكر، وبهما كملت له
 انسانيته، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هياه الله له بحكم الفطرة
 التي فطر عليها، وقد قال بعض حكماء الغربيين، من متأخريهم: إن
 نشأة المدنية في أوروبا إنما قامت على هذين الأصلين، فلم تنهض
 النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر إلا بعد أن عرف العدد
 الكثير أنفسهم، وأن لهم حقاً في تصريف اختيارهم، وفي طلب الحقائق
 بعقولهم، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس

(٧٤) لقمان ٢١٠ .

(٧٥) الزخرف: ٢٢.

عشر من ميلاد المسيح، وقرر ذلك الحكيم: انه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الأزمان (٧٦).

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية، استثنائاً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم، وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتبة المقدسة، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعاً من تلك الكتب، لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ماترمى إليه، ثم غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلّا قليلاً، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء في الشرائع والنبوات، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف فذهبوا بحكمة الإرسال، فجاء القرآن يلبسهم عاراً مافعلوا، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٧) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً، بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٨). أمّا الأمانى ففسرت

(٧٦) الإشارة هنا إلى أثر التعاليم الاسلامية التي اقتصمها الغرب من الاتدلس وبواسطة الاختلاط زمن الحروب الصليبية .. الخ في حركة الإصلاح الديني في أوروبا . وسبأتي لنا تعليق خاص بهذا الامر في الفصل الخاص بانتشار الاسلام من رسالة التوحيد هذه .

(٧٨) الجمعة : ٥٠ .

(٧٧)البقرة : ٧٨ .

بالقراءات والتلاوات، أى لا يعلمون منه إلا أن يتلوه، وإذا ظنوا أنهم على شىء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه، وبلا برهان على ماتخيلوه عقيدة وظنوه ديناً، وإذا عن لأحدهم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصده، لشهوة دفعتة الى ذلك، جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة، واعتسف فى التأويل، وقال: هذا من عند الله ﴿فويلٌ للَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (٧٩)، أمّا الذين قال: إنهم لم يحملوا التوراة، وهى بين أيديهم بعد ما حملوها، فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ، ولم تسم عقولهم إلى إدراك ما أودعته من الشرائع والأحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاحتذاء بها، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها، فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر من شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به، مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب وقصم الظهور وانبهار النفس، وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال، فما كان سبباً فى إسعادهم، وهو التنزيل والشرعة، أصبح سبباً فى شقائهم بالجهل والغفابة. وبهذا التقرير ونحوه، وبال دعوة العامة الى الفهم وتحييص الأبواب للتفقه واليقين، مما هو منتشر فى القرآن العزيز، فرض الإسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه، وما قرر

(٧٩) البقرة: ٧٩.

من شرعه، وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد ما لابد منه للفهم، وهو سهل المتال على الجمهور الأعظم من المتدينين، لاختصاص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيتته وقت من الأوقات.

اتفاق الأديان على التوحيد

جاء الإسلام والناس شيع في الدين، وإن كانوا، إلا قليلا، في جانب عن اليقين، يتناهبون ويتلاعنون، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون، فرقة وتخالف وشغب يظنونها في سبيل الله أقوى سبب، أنكر الإسلام ذلك كله، وصرح تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان وعلى السن جميع الأنبياء واحد، قال الله:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾
(٨٠) ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨١) ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا

(٨٠) آل عمران: ١٩.

(٨١) آل عمران: ٦٧.

الدينَ وَلَا تَتَقَرَّبُوا فِيهِ، كَثُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴿٨٢﴾. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٨٣)، وكثير من ذلك يطول إيراد في هذه الوريقات.

والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين مانزعوإ إليه من الاختلاف والمشاقة، مع ظهور الحجج، واستقامة المحجة لهم في علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته. نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو افرده بالربوبية، والاستسلام له وحده بالعبودية، وطاعته فيما أمر به، ونهي عنه، مما هو مصلحة البشر، وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله، ودعا العقول الى فهمه منها، والعزائم الى العمل به، وأن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذي يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف، وأن اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين، ويعد عن سنته، ومتى

(٨٢) الشوري : ١٣ .

(٨٣) آل عمران ٦٤ .

روعت حكمته ولوحظ جانب العناية الإلهية فى الإنعام على البشرية، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها، وسار الكافة فى مرادهم إخواناً، بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين.

إختلاف الأديان فى العبادات

أما صور العبادات، وضروب الاحتفالات ، فما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها، واختلف الأحكام متقدمها مع متأخرها، فمصدره رحمة الله ورأفته فى إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملائمة للزمان، وكما جرت سنته - وهو رب العالمين - بالتدرج فى تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، الى راشد فى عقله ، كامل فى نشأته، يمزق الحجب بفكره، ويواصل أسرار الكون بنظره، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم، فلم يكن من شأن الإنسان، فى جملته ونوعه، أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ من الكمال منتهاه، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النمو قائما على مآقريه الفطرة الإلهية فى شأن أفرادها ، وهذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف فيها، وان اختلف أهل النظر فى بيان ما تنفع فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة، فلا تطيل الكلام فيه هنا.

تطور الأديان

نجأت الأديان والناس من فهم مصالحهم العامة، بل والخاصة، في طور أشبه بطور الطفولية للناس. الحديث العهد بالوجود، لا يألف منه إلّا ما وقع تحت حسه، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمه، وأن يتأول بذهته من المعاني ما لا يقرب من له، ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه في هم شاغل عمّا يلقي إليه فيما يصله بغيره، اللهم إلا ينادي إلى فمه بطعام أو تسند، في يعود أو قيام. فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلف في الوجدان، أو يرقى إليه بسلم البرهان، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام - وهم عيال الله - سير الوالد مع ولده في سذاجة السن لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمع أو ببصره، فأخذتهم بالأوامر الصادقة. والزواجر الرادعة، وطالبتهم بالطاعة، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة (٨٤). كلفته بمعقول المعنى، جلى الغاية، وإن لم يفهموا معناه، ولم تصل مداركهم إلى مرماه، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم، وتتفعل به مشاعرهم، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه.

(٨٤) الإشارة هنا إلى الديانة الموسوية.

ثم مضت على ذلك أزمان، علت فيها الأقوام وسقطت، وارتفعت وانحطت، وجريت وكسبت، وتحالفت واتفقت، وذاتت من الأيام آلاماً، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياً ما وأياً ما ، ووجدت الأتفس بنفث (٨٥) الحوادث ولقن (٨٦) الكوارث شعوراً أدق من الحس، وأدخل فى الوجدان، لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء، أو تذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين يخاطب العواطف ويناجى المراحم، ويستعطف الأهواء، ويحدث خطرات القلوب، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى ، ويقتضى من صاحب الحق ألا يطالب به ولو بحق، ويفلق أبواب السماء فى وجوه الأغنياء، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف (٨٧) ، وسن للناس سنناً فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه، ومادعاهم اليه، فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها ودأوى من أمراضها، ثم لم يمس عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتمالها، وضاعت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله، وقرر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال، فهب القائمون عليه

(٨٥) لقاء الحوادث والهامها .

(٨٦) لقن الكوارث : كلامها المباشر ودلالاتها .

(٨٧) الإشارة هنا إلى المسيحية .

أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان، ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل، وأضافوا عليه ماشاء الهوى من الأباطيل.

هذا كان شأنهم فى السجايا والأعمال، نسوا طهارته، وباعوا نزاهته. أما فى العقائد فتفرقوا شيعاً، وأحدثوا بدعاً، ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها، وتوهموه من أقوى دعائمها، وهو حرمان العقول من النظر فيه، بل وفى غيره من دقائق الأكوان، والمحظر على الأفكار أن تنفذ إلى شىء من سرائر الخلقة، فصرحوا أن لا وفاق بين الدين والعقل، وأن الدين من أشد أعداء العلم، ولم يكف الذهاب الى ذلك أن يأخذ به نفسه، بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة، وأفضى الغلو فى ذلك بالأنفس إلى نزعة كانت أشد النزعات على العالم الإنسانى، وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للإلزام ببعض قضايا الدين، فتقوض الأصل وتخرمت العلائق بين الأهل، وحلت القطيعة محل التراحم، والتخاصم مكان التعاون، والحرب محل السلام، وكان الناس على ذلك الى أن جاء الإسلام.

الإسلام

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالإتسان أشده وأعدته الحوادث الماضية الى رشده، فجاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب،

ويشركه مع العواطف والإحساس في إرشاد الانسان الى سعادته
 الدينية والأخروية، وبين للناس ما اختلفوا فيه، وكشف لهم عن وجه
 ما اختلفوا عليه، وبرهن على أن دين الله في جميع الأجيال واحد،
 ومشيئته في إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة، وأن رسم العبادة
 على الأشباح إنما هو لتجديد الذكرى في الأرواح، وأن الله لا ينظر الى
 الصور ولكن ينظر الى القلوب، وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه
 بإصلاح سره، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن، وعد كلا
 الأمرين طهراً مطلوباً، وجعل روح العبادة الاخلاص، وأن ما فرض من
 الأعمال إنما هو لما أوجب من التطبيع بصالح الملكات ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ
 تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (٨٨) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ
 هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ،
 إِلَّا الْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩) ورفع غنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر، بل
 ربما فضله عليه، وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي
 للرجل الرشيد، فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة، وصرح
 بما لا يقبل التأويل أن في ذلك رضا الله وشكر نعمته، وأن الدنيا مزينة
 الآخرة، ولا وصول الى خير العقبى إلا بالسعى في صلاح الدنيا.

(٨٨) المنكبرت: ٤٥ .

(٨٩) المارج ٢٢، ١٩ .

التفت الى أهل العناد فقال لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٠) . وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زَعَرُوا من أصول اليقين، ونص على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين، ولم يقف فى ذلك، عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان، بل شرع شريعة الوفاق، وقررها فى العمل، فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب، وسوغ مؤاكلتهم، وأوصي أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن، ومن المعلوم أن المحاسنة هى رسول المحبة، وعقد الالفة، والمصاهرة إنما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين، والارتباط بينهما يروابط الالتلاف.

ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدفعون عن أنفسهم، ونص على أن لهم مالتا وعليهم ما، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيدا يقدمونه من مالهم، ونهى بعد ذلك عن كل إكراه فى الدين، وطيب قلوب المؤمنين فى قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (٩١) ، فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى أحسن،

(٩٠) البقرة : ١١١ .

(٩١) المائدة ١٠٥ .

وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الإسلام، فإن نوره جدير أن يخترق القلوب، وليست الآيات فى الأمر بالمعروف بين المسلمين، فإنه لا اعتداء إلا بعد القيام به، ولو أريد ذلك لكان التعبير: (على كل واحد منكم بنفسه) لا (عليكم أنفسكم)، كما هو ظاهر لكل عربى، كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه، ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه.

رفع الاسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية، وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة، وشرف اندراجها فى النوع الانسانى بالجنس (٩٢) والفصل (٩٣) والخاصة (٩٤)، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها، على خلاف مازعمه

(٩٢) الجنس، فى المنطق، هو كل مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة فى جواب ما هو. أنظر (المعجم الفلسفى).

(٩٣) الفصل فى المنطق، هو جملة الموضوعات التى تربط بينها صفات مشتركة، ويطلق على جزء من الماهية يميز النوع، كالناطق بالنسبة للسان، وإذا ميز النوع عن مشاركته فى الجنس القريب، سمي «بالفصل القريب» وإذا ميزه عن مشاركته فى الجنس البعيد سمي «بالفصل البعيد». أنظر المرجع السابق.

(٩٤) هي الكلي الدال على نوع واحد فى جواب أي شئ هو، لا بالذات، بل بالعرض.. وتطلق على ما ليس داخلا فى الماهية ولكنه يميز الشئ، كما تطلق على ما هو ملازم للشئ على الدوام، الخ. أنظر المرجع السابق.

المتحللون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم، وتسجيل الحسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق بغيرهم، فأماتوا الأرواح في معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً.

هذه عبادات الإسلام، على ما فى الكتاب وصحيح السنة، تتفق على ما يليق بجلال الله، وسمو وجوده عن الأشياء، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة . .

فالصلاة: ركوع وسجود، وحركة وسكون، ودعاء و تضرع، وتسبيح وتعظيم، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهى الذي يفمر القوة البشرية، ويستغرق الحول، فتخشع له القلوب، وتستخذى له النفوس، وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمى الجمرات (٩٥)، على أنه بما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير، وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير.

أما الصوم: فحرمان يعظم به الله فى النفس، وتعرف به مقادير النعم عند فقدها، ومكانة الإحسان الإلهى فى التفضل بها ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الدِّينِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٩٦).

(٩٥) فى مناسك الحج

(٩٦) البقرة ١٨٣ .

أما أعمال الحج فتذكير للإنسان بأوليات حاجاته، وتعهد له
بتمثيل المساواة بين أفرادِهِ، ولو فى العمر مرة، يرتفع فيها الامتياز بين
الغنى والفقير، والصعلوك والأمير، ويظهر الجميع فى معرض واحد
عراة الأبدان، متجردين عن آثار الصنعة، وحدث بينهم العبودية لله رب
العالمين، كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولس
الحجر ذكرى إبراهيم عليه السلام، وهو أبو الدين، هو الذى سماهم
المسلمين، واستقرار يقينهم على أن لاشئ من تلك البقايا الشريفة يضر
أو ينفع، وشعار هذا الإذعان الكريم فى كل عمل: (الله أكبر).

أين هذا كله مما تجدد فى عبادات أقوام آخرين؟ يضل فيها العقل،
ويتغذر معها خلوص السر للتزييه والتوحيد؟.

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث
الكون الكبير: (العالم) والكون الصغير (الإنسان) فقرر أن آيات الله
الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلهية التى قدرها
الله فى علمه الأزلى، لا يغيرها شئ من الطوارئ، الجزئية، غير أنه
لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها، بل ينبغى أن يحيى ذكره عند
رؤيتها، فقد جاء على لسان النبى ﷺ (الشمس والقمر آيتان من آيات الله
لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله) . وفيه
التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد، لا يقضى فيه الا
العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها.

ثم أمارت اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم، والمصائب التي يُرزون بها، ففصل بين الأمرين فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما، فأما النعم التي يتمتع الله بها بعض الأشخاص في هذه الحياة، والرزايا التي يرزا بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاء والقوة والبنين أو الفقر والضعف والضعف والفقد . قد لا يكون كاسبها أوجالها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج، أو طاعة وعصيان، وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة، أو الفجرة الفسقة، وترك لهم متاع الحياة الدنيا، وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده، وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقولهم : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ؟﴾ (٩٧)، فلا غضب زيد ولا رضاعمرو، ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب على جاري العادة، كارتباط الفقر بالإسراف، والذل بالجبن، وضياح السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب، والمكانة عند الناس بالسعى في مصالحهم على الأكثر، وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر.

(٩٧) البقرة: ١٥٦ .

أما شأن الأمم فليس على ذلك، فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائع الإلهية، من تصحيح الفكر، وتسديد النظر، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامع الشهوات، والدخول الى كل أمر من بابه، وطلب كل رغبة من أسبابها، وحفظ الأمانة، واستشعار الأخوة، والتعاون على البر، والتناصح فى الخير والشر، وغير ذلك من أصول الفضائل، ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة: ﴿مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا فُتُوْتِهِ مِنْهَا﴾ (٩٨) ، ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها، يزيد الله النعم بقوته، وينقصها بضعفه، حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره، وتبعته الراحة إلى مقبره، واستبدل الله عزة القوم بالذل، وكثرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (٩٩) . أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل، لا ينفعهم الأثين ولا يجديهم البكاء ، ولا يقيدهم مابقى من صور الأعمال، ولا يستجاب منهم الدعاء، ولا كشف لما نزل بهم إلا أن يلجئوا الى ذلك الروح

(٩٨) آل عمران : ١٦-

(٩٩) الإسراء : ١٦-

الأكرم فيستثزلوه من سماء الرحمة يرسل الفكر والذكر والصبر والشكر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (١٠٠) ، «سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» (١٠١) وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه : (اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع إلا بتوبة) .

على هذه السنن جرى سلف الأمة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه . ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ، ماض في غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئا .

التعليم

حث القرآن على التعليم ، وإرشاد العامة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٠٢) ، ثم فرض ذلك في قوله

(١٠٠) - الرعد : ١١ .

(١٠١) - الأحزاب : ٦٢ .

(١٠٢) - التوبة : ١٢٢ .

﴿وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَلَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتِ وَاللَّكَّ لَهُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ
وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ
ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، تِلْكَ
آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعَالَمِينَ، وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللّٰهُ
يُزْجِعُ الْأُمُورَ﴾ (١٠٣)، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْوَعِيدِ الَّذِي يُزْجِعُ
الْمُفْرَطِينَ، وَتَحْقِيقَ كَلِمَةِ الْعَذَابِ عَلَى الْمُخْتَلِفِينَ وَالْمُقَصِّرِينَ ، أِبْرَزَ حَالِ
الْأُمَارِينَ بِالْمَعْرُوفِ النَّهَائِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي أَجْلِ مَظْهَرٍ يُمْكِنُ أَنْ تَظْهَرَ فِيهِ
حَالُ أُمَّةٍ، فَقَالَ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (١٠٤) ،
فَقَدَّمَ ذَلِكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى الْإِيمَانِ ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ،
مَعَ أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ أَعْمَالُ الْبِرِّ، وَالذُّوْعَةُ الَّتِي

(١٠٣) آل عمران: ١٠٤-١٠٩.

(١٠٤) آل عمران: ١١٠.

تتفرع عنها أفتان الخير، تشريفاً لتلك الفريضة، وإعلاءً لمزلتها بين
 الفرائض، بل تنبيهاً على أنها حفاظ الإيمان وملاك أمره، ثم شد
 بالإفكار علي قوم أغفلوها، وأهل دين أهملوها، فقال ﴿لَعْنُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ
 مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ
 عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٠٥)، فقد ذُكرَ
 عليهم اللعنة، وهي أشدُّ ما عَنُونَهُ اللهُ به على مقتبه وغضبه.

الزكاة

فرض الإسلام للفقراء في أموال الأغنياء حقاً معلوماً يفيض به
 الآخرون على الأولين، سداً لحاجة المعدم، وتغريباً لكرهه القارم، وتحريراً
 لرقاب المستعبدين، وتيسيراً لأبناء السبيل، ولم يَحْثْ على شيء حثه
 علي الاتفاق من الأموال في سبيل الخير، وكثيراً ما جعله عنوان الإيمان
 ودليل الإهتمام إلى الصراط المستقيم، فاستل بذلك ضفائن أهل الفاقة،
 ومحص (١٠٦)، صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم في
 الرزق، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء
 على أولئك البائسين، فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس

٧٨ (١٠٥) المائدة: ٧٨ -

(١٠٦) أي خَلَصَهَا -

الناس أجمعين، وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا؟ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١٠٧)
أغلق الإسلام بابى الشر، وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريماً باتناً لاهوادة فيه.

لم يدع الإسلام، بعد ماقرونا، أصلاً من أصول الفضائل إلّا أتى عليه، ولا أما من أمهات الصالحات إلّا أحياها ولا قاعدة من قواعد النظام إلّا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده - كما ذكرنا -، حرية الفكر، واستقلال العقل فى النظر، ومابه صلاح السجاياء ومافيه انهض العزائم الى العمل وسوقها فى سبيل السعى. ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد وذخيرة لا تنفى.

هل بعد الرشد وصاية؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟ .. كلا ..
قد تبين الرشد من الغى، ولم يبق إلّا إتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين. لهذا ختمت النبوءات بنبوة محمد ﷺ وانتهت الرسالات برسالته، كما صرح بذلك الكتاب، وأيدته السنة الصحيحة، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده (١٠٨)، وأطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائل بها أنه يحدث عن الله بشرح، أو يصدر عن وحيه بأمر. هكذا يصدق نبا الغيب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ جِئَالِكُمْ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (١٠٩)

(١٠٧) الحديد : ٢١ .

(١٠٨) الاشارة إلى المنتهين بعد الرسول من أشهرهم مسيلمة الكلاب .

(١٠٩) الأحزاب: ٤٠ .

انتشار الإسلام بسوعة لم يعهد لها نظير في التاريخ

كانت حاجة الأمم الى الإصلاح عامة، فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك، لكن يندش عقل الناظر في أحوال البشر عندما يرى أن هذا الدين يجمع اليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربي ودار الصين في أقل من قرن واحد. وهو أمر لم يعهد في تاريخ الأديان، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب، واهتدى إليه المنصفون فبطل العجب.

ابتدأ هذا الدين بالدعوة، كغيره من الأديان، ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقي حق من باطل، أوذى لداعى، ﷺ بضروب الإيذاء، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب، لولا عناية الله، وعذب المستجيبون له، وحرموا الرزق، وطردوا من الدار، وسفكت منهم دماء غزيرة، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر ويثبت الله بمشهدا المستيقنين، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الرب وهي ذوب ما قسد من طباعهم فتجرى من مناخرهم جرى الدم الفاسد من الفصوص على أبدى الأطباء الحاذقين ﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْحَقِيبَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْحَقِيبَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾

فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١٠﴾

تألبت الملل المختلفة من كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام، ليحصدوا نبتته، ويخنقوا دعوته، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء، والفقير للأغنياء، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل والرشد في ظلمات الأضاليل، حتى ظفر بالعزة، وتعزز بالمتعة. وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر، كانت تدعو إليها، وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحاً ولا أنالهم القهر للاحاً.

ضم الإسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم، ولم يعمد لها نظير في ماضيهم، وكان النبي ﷺ، قد أبلغ رسالته بأمر ربه، الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان، فهزموا وامتنعوا، وناصروه وقومه الشر، وأخافوا السابلة، وضيقوا على المتاجر فبعث إليهم البعوث في حياته، وجرى على سنته الأئمة من صحابته، طلباً للأمن وإبلاغاً للدعوة، فاندفعوا في ضعفهم و فقرهم يحملون الحق على أيديهم، وأنهلوا به على تلك الأمم في قوتها ومنعتها، وكثرة عددها، واستكمال أهبيها وعددها، فظفروا منها بما هو معلوم .

وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها، واستقر السلطان للفتاح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين، وأباحوا لهم البقاء على

(١١٠) الأنفال: ٣٧.

أديانهم، وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين، ونشروا حمايتهم عليهم،
يتمتعونهم ما يتمتعون منه أهلهم وأموالهم، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءا
قليلًا من مكاسبهم على شرائط معينة.

كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها
الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها يلجون على الناس بيوتهم
ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر، وبرهانهم الغفلية،
وحجتهم القوة، ولم يقع ذلك لفتاح من المسلمين، ولم يعهد في تاريخ
فتح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة، يأخذون على
عقائده بين غير المسلمين، بل كان المسلمون يكتفون على بث أنفسهم
أنفسهم العمل في نشره، ويقفون مساعده على بث بمخالطة من عداهم،
ومحاسنتهم المعاملة، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة
المغلوبين فضلا وإحسانا عندما كان يعدها الأوروبيون ضعة وضعفاً.

رفع الإسلام مائتًا من الإتاوات (١١١)، ورد الأموال المسلوية إلى
أربابها، وانتزع الحقوق من مقتصبيها، ووضع المساواة في الحق عند
التقاضى بين المسلم وغير المسلم. بلغ أمر المسلمين فيما بعد ألا يقبل
الإسلام من داخل فيه إلا بين يدي قاض شرعي بإقرار من المسلم الجديد
أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة في دنيا، وصل الأمر في عهد بعض الخلفاء
الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الإسلام لما رأوا أنه ينقص

(١١١) عند فتح العرب لمصر كان الفلاح المصري يدفع للدولة البيزنطية أكثر
من ثلاث عشرة ضريبة، اختصرها العرب إلى ضربتين اثنتين، معلومتي المقدار
وميعاد السداد، متناسطين مع الوضع الاقتصادي الذي يعيش فيه. أنظر دراستنا
عن (أرض مصر وفلاحها من الفتح العربي إلى الانقطاع العربي) بكتابتنا (نظرة جديدة
إلى التراث طبعة بيروت سنة ١٩٧٤).

من مبالغ الجزية، وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لامحالة (١١٢). عرف خلفاء المسلمين وملوكهم، فى كل زمن، ما لبعض أهل الكتاب، بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال، فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى أسبانيا. اشتهرت حرية الأديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوروبا فرارا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها.

هذا ماكان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم ، لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته، وألقوا بذلك بين أيديهم، وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه، ولم يقوموا بينهم بدعوة، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئا من القوة، وماكان من الجزية لم يكن مما يشغل أداؤه على من ضريت عليه، فما الذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام، وأقنعهم أنه الحق، دون ماكان لديهم، حتى دخلوا فيه أفواجا، وبذلوا فى خدمته مالم يبذل له العرب أنفسهم؟؟.

ظهور الإسلام، على ماكان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية، وتغلبه على ماكان فيها من ذائل الأخلاق وقبائح الأعمال، وسيره بسكانها على المادة القويمة، حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل.

(١١٢) أنظر : فان فلورن (السيادة العربية والشيعة والامراتيليات فى عهد بنى أمية) ص ٥٢ وما بعدها . ترجمة د. حسن ابراهيم حسن . محمد زكي ابراهيم . الطبعة الثانية .

وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدهما، فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلاً إلى البقاء على العناد في مجاهدته، فقتلوه شاكرين، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين.

أوقع ذلك من الريب في قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه. فوجدوا لطفاً ورحمة. وخيراً ونعمة، لاعقيدة ينفر منها العقل، وهو رائد الإيمان الصادق، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية، وهى القاضية في قبول المصالح والمرافق. رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى، ويلحقها بالملكوت الأعلى، ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه، وبعد برضا الله ونبل ثوابه حتى في توفية البدن حقه، متى حسنت النية وخلصت السريرة فإذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الإلهي ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة. تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرأوا القرآن، ونظروا في سيرة الظاهرين من حامليه إليهم، وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل إلى فهمه، وماتكفى جولة نظر في الوصول إلى علمه، فتراموا إليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه. كانت الأمم تطلب عقلاً في دين، فوافاهما، وتتطلع إلى عدل في إيمان، فأثابها، فما الذي يحجم بها عن المسارعة في طلبتها والمبادرة إلى رغبته؟ كانت الشعوب تشن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الأديين متى عرضت دونها شهبوات الأعلين، فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمرير عظيم

مطلق السلطان فى قطر كبير، وماكان يريد له نفسه، ولكن ليوسع به مسجداً، فلما عقد العزيمة على دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الأمير على ماكان منه (١١١٣) ١١ عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بى أبى طالب أمام القاضى، وهو من نعلم من هو، ويستوقفه للتقاضى، الى أن قضى الحق بينهما. هذا وماسبق بيانه فحاجاه به الإسلام هو الذى حبيه الى من كانوا أعداءه، ورد إليه أهواهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه.

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام، فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفه إلا بعد أن يحرجهم الجار، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم، ثم لا يكون الاطائف يحل ثم يرتحل، فإذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفت من اللين والمياسرة.

ومع ذلك - بل وغفلة المسلمين عن الاسلام، وخذلانهم له، وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم - ثم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد، خصوصا فى الصين وفى أفريقيا، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الأخذ بعقائده، على بصيرة فيما تنزع إليه، لاسيف وراعى، ولاداعى أمامها، وإنما هو مجرد الاطلاع على ماأودعه، مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه .

(١١١٣) الامير هو عمرو بن العاص، والى مصر، والمرأة قبطية مسيحية

ومن هذا تعلم أن سرعة الدين الاسلامى، واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة، انما كان لسهولة تعقله، ويسر أحكامه، وعدالة شريعته، وبالجملة، لأن فطر البشر تطلب ديناً، وترتاد منه ماهر أمس بمصالحها، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها، وأدعى إلى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة، ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً، وإلى العقول مخلصاً، بدون حاجة الى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقاف الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الجبائل لإسقاط النفوس فيه. هذا كان حال الإسلام فى سداخته الأولى وطهارته التى أنشأ الله عليها، ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الأرض الى اليوم

قال من لم يفهم ماقدمناه، ولم يرد أن يفهمه: إن الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلا بالسيف، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى، يعرضون القرآن على المغلوب، فإن لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته. سبحانه هذا بهتان عظيم. ماقدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواتراً صحيحاً، لا يقبل الريبة فى جملة، وإن وقع اختلاف فى تفصيله، وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال إليه.

لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل فى الرقاب للإكراه على الدين والإلزام به، مهدداً كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحور من سطح البسيطة، ومع كثرة الجيوش، ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة

كانت تمكن لها، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة، واستمر في شدته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد، فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل من قرن، هذا ولم يكن السيف وحده، بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته، مع غيرة تفيض من الأفتدة، وفصاحة تتدفق من الألسنة، وأموال تخلق أبواب المستضعفين. إن في ذلك لآيات للمستيقنين.

جلت حكمة الله في أمر هذا الدين. سلسبيل حياة نبج في القفار العربية، أبعد بلاد الله عن المدنية، قاض حتى شملها، فأحيها حياة شعبية مليّة، علامه حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها، وتعلو أهل الأرض بمدنيتها، زلزل هديره على لينه - ما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها.

قالوا: كان لا يخلو من غلب (بالتحريك). قلنا: تلك سنة الله في الخلق، لاتزال المصارعة بين الحق والباطل، والرشد والغى قائمة في هذا العالم الى أن يقضى الله قضاءه فيه. اذا ساق الله ربيعا الى أرض جذبة، ليحيى ميتها وينقع غلتها وينمى الخصب فيها، أفينقص من قدره أن أتى في طريقه على عقبة فعلاها، أو بيت رفيع العماد فهو به؟؟.

سطع الاسلام على الديار التي بلقها أهله، فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه، اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً، وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً فوقف وقفة القائد خذله الأتصار، وكاد يتزحزح الى ماوراء، لكن

الله بالغ أمره، فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها "جنگيز خان"، وقعلوا بالمسلمين الأفاعيل (١١٤)، وكانوا وثنين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الاسلام ديناً وحملوه الى أقوامهم، فعمهم منه ماعم غيرهم، جاءوا لشقتهم فعاوجوا بسعادتهم.

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة، لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشتراك فيها، واستمرت المجالادات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة (١١٥)، جمع فيها للغربيين من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل؛ وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغت طاقاتهم، وزحفوا على ديار المسلمين، وكانت فيهم بقية من روح الدين، فقلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية، وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها، لم جاؤا؟ وماذا رجعوا؟؟. ظفر رؤساء الدين فى الغرب بإثارة شعوبهم ليبعدوا ما يشاءون من سكان الشرق، أو يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية. جاد من الملوك والأمرء وذوى الثروة والأغلياء جم غفير، وجاء ممن دونهم من الطبقات ماقدروه بالملايين، استقر المقام بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين، وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها، تنظر فى أحوال المجاورين، وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع، فتبين أن المبالغات التى أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة، ثم وجدت حرية فى دين، وعلماً وشرعاً وصنعة

(١١٤) كان ذلك منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

(١١٥) فى الحروب الشهيرة بالحروب الصليبية (١٠٩٦-١١٩٢م) .

مع كمال فى يقين، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل
الإيمان لامن العوادي عليه، ثم جمعت من الأدب ماشاء الله وانطلقت
الى بلادها قرية العين بما غنمته من جلادها.

هذا ماكسبه السفار من أطراف الممالك الى بلاد الأندلس
بمخالطة حكائنها وأدبائها ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة
ماكسبوا، وأخذت الأفكار فى ذلك العهد تتراسل، والرغبة فى
العلم تتزايد بين الغربيين، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد،
ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين والأخذ على أيديهم
فيما تجاوزوا فيه وصاياهم، وحرفوا فى معناه، ولم يكن بعد ذلك إلا
قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الإصلاح والرجوع
بالدين الى سذاجته، جاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام إلا
قليلا، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد الى ما يتفق مع
عقيدة الإسلام إلا فى التصديق برسالة محمد ﷺ، وأن ما هم
عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى، إلا فى
صورة العبادة لاغير.

ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها، وتصلح من شئونها،
حتى استقامت أمور دنياها على مثل مادعا اليه الإسلام، غافلة
عن قائدها، لاهية عن مرشدها، وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى
تفاخر بها الأجيال المتأخرة من سبقها من أهل الأزمان الغابرة. هذا ظل
من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وريت وأنبئت من كل زوج بهيج

جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا، وعادوا ليفيدوا. ظن الرؤساء أن في
أهاجة شعوبهم شفاء ضعفهم ، وتقوية ركنهم، فباءوا بوضوح شأنهم
وضغضة سلطانهم وما بيناه في شأن الاسلام، ويعرفه كل من تفقه فيه،
قد ظفر به كثير من أهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا
أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم. وإلى الله عاقبة
الأمر (١١٦).

(١١٦) في الفصل الخاص بالقرآن أشرنا الى تبنى الامام لرأى الحكيم الغربي
الذي أرجع الاصلاح لدينى فى أوروبا المسيحية الى تعاليم الاسلام المقتبسة من أهله..
وهنا يعود الاستاذ الامام للحديث عن هذا الأمر مشيراً الى (الاداب التى جمعها
الصليبيون المحاربون فى المشرق، والمكاسب العملية التى اكتسبها (سفراء) أوروبا من
الأندلس، وثمرة كل ذلك التى تجسدت فى حركة الاصلاح الدينى المسيحية، وكيف
جاء المذهب الجديد البروتستانتيق قاب قوسين أو أدنى من الإسلام . . . وللمرحوم
الاستاذ أمين الخولى بحث نفيس فى هذا المقام عنوانه (صلة الاسلام باصلاح
المسيحية) (سنة ١٩٣٥م) قدم فيه دراسة علمية تثبت بالأدلة والبراهين ما أشار اليه
فى إجمال هنا الاستاذ الإمام.

وما تجدر الإشارة اليه أن الاستاذ الخولى قد عاب فى نهاية بحثه على الشيخ
رشيد رضا وضعه فى الطبعة السابعة من رسالة التوحيد سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤م
وضعه لهذه الفقرة عنواناً فرعياً هو " اقتباس الاصلاح الدينى فى أوروبا من الإسلام "
بحجة أن كلام الاستاذ الإمام لا يشير الى الاقتباس ولكننا نرى أن نص الاستاذ الإمام
يشهد بسبقه (بالإشارة) الى ما أبدع فى دراسته بعد ذلك الاستاذ الخولى عليهم
جميعاً رحمه الله.

إيراد سهل الإيصاد

يقول قائلون : إذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق، وقال كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (١١٧) فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها المشارب، وفرقت بين طوائفها المذاهب؟؟.

إذا كان الاسلام موحداً فما بال المسلمين عددوا؟ إذا كان مولياً وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نقماً ولا ضراً ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً؟، وكادوا يعدون ذلك فصلاً من فصول التوحيد؟. إذا كان أول دين خاطب العقل، ودعاه الى النظر فى الاكوان ، وأطلق له العنان يجول فى ضمايرها بما يسعه الإمكان، ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان، فما بالهم قنعوا باليسير، وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظناً منه أنه قد يرضى الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع؟ . ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها؟. ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجود والعمل، أصبحوا مثلاً فى القعود والكسل؟. ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم، وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوا وبين مادعاهم إليه فتركوه؟؟.

إذا كان الإسلام فى قرية من العقول والقلوب، على ما بينت فما باله اليوم . على رأى القوم - تقصر دون الوصول اليه يد

(١١٧) الأنعام ١٥٩ .

، اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه، فمال بال قراء القرآن لايقروونه إلا تغنياً، ورجال العلم بالدين لايعرفه أغلبهم إلا تنظياً.

اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال، فما بالهم شدوها الى أغلال ، أى أغلال؟، اذا كان قد أقام قواعد العدل، فما بال أغلب حكامهم يضرب به المثل فى الظلم؟ ، اذا كان الدين فى تشوف الى حرية الأرقاء، فما بالهم قضوا قروناً فى استعباد الأحرار؟، اذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء؟، اذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه؟، اذا كان قد حرم الفواحش مظهر منها ومايطن، فما هذا الذي نراه بينهم فى السر والعلن والنفس والبدن؟، اذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، خاصتهم وعامتهم، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (١١٨)، وأنهم أن لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم، فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم، وشد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره، فما بالهم لايتناصحون ولايتواصون بحق، ولايعتصمون بصبر، ولايتناصحون فى خير ولاشر، بل ترك كل صاحبه وألقى بحيله على غاريه فعاشوا أفذاذاً (١١٩) ،

(١١٨)العصر: ٢، ٣.

(١١٩) أفرادا مفرقين في الفردية ، ضد التضامن والجماعية .

وصاروا فى أعمالهم أفرادا ، لا يحس أحدهم بما كان من عمل أخيه كأن ليس منه وكأن لم يجمعه معه صلة ، ولم تضمه اليه وشيجة ؟؟ ما بال الأبناء يقتلون الآباء ؟ ، وما بال البنات يعقن الأمهات ؟ أين وشائج الرحمة ؟ ، أين عاطفة الرحم على القريب ؟؟ ، أين الحق الذى فرض فى أموال الأغنياء للفقراء وقد أصبح الأغنياء يسلبون مابقى فى إيدى أهل البأساء ؟؟ .

قبس من الإسلام أضاء الغرب ، كما تقول ، وضوء الأعظم وشمسه الكبرى فى الشرق ، وأهله فى ظلمات لا يبصرون .. أصبح هذا فى عقل ، أو عهد فى نقل ؟؟ ألم نر الى الذين تذوقوا من العلم شيئا ، وهم من أهل هذا الدين ، أول ما يعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات ، وقواعده وأحكامه ترهات ، ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الأفكار وبعداء الأنظار ؟ والى الذين قصروا همهم على تصفح أوراق من كتبه ، ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه ، كيف يجافون علوم النظر ويهزمون بها ، ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا ، ويفتخر الكثير منهم بجهلها ، كأنه فى ذلك قد هجر منكرا ، أو ترفع عن دنيئة ؟؟

فمن وقف على باب العلم من المسلمين تجد دينه كالشوب الخلق ، يستحى أن يظهر به بين الناس ، ومن غرته نفسه بأنه على شىء من الدين ، وأنه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة (١٧٠) والعلم ظنة !! أليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته والناس على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟؟ .

(١٧٠) الجنة بكسر الجيم وتشديد النون المفتوحة : من معانيها : الجنة

وهو المراد هنا .

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم، بل من عدة أجيال، وربما كان ماجاء فى الإيراد قليلاً من كثير، وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله ، وابن الحاج، وغيرهما من أهل البصر فى الدين ماكان عليه مسلموا زمانهم، عامتهم وخاصتهم، بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت فى خاصة الدين الاسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن ، مع التدقيق فى فهم معانيه، وحملها على مافهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم، ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ماكتبه محققوا ومصنفوا سائر الأمم، فذلك هو الإسلام.

وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل، من أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد إليه نال من السعادة ماوعد الله أتباعه. وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهذا الدواء، فظهر نجاحه ظهورا لايسطيع معه الأعمى إنكاراً، والأصم إعراضاً. وغاية ما قيل فى الإيراد : أن أعطى الطبيب الى المريض دواء، فصح المريض، وانقلب الطبيب بالمريض الذى كان يعمل لمعالجته، وهو يتجرع الفصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لايتناولوه، وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه، وهو فى يأس من حياته، ينتظر الموت، أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله .

كلامنا اليوم في الدين الإسلامي وحاله على ما بيننا، أما
المسلمون، وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم
فلا كلام لنا فيهم الآن، وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر
(١٢١) ان شاء الله.

(١٢١) تعد كتابات الاستاذ الإمام التي تتناول علاقة الاسلام بالحضارة
وضع المسلمين ازاعها وفاء برعده هذا، وهي مقالات وأبحاث جمعناها في أعماله
الكاملة، أما في حياته فلم يخرج كتاباً متكاملاً في هذا الموضوع.

التصديق بما جاء به



محمد

بعد أن ثبتت نبوته، عليه السلام، بالدليل القاطع ، على ما بينا، وأنه إنما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره، والايان بما جاء به، ونعني بما جاء به ماصرح به فى الكتاب العزيز، وماتواتر الخبر به تواترا صحيحاً مستوفياً لشرائطه، وهو : " ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس".

ومن ذلك أحوال ما بعد الموت، من بعث، ونعيم فى جنة وعذاب فى نار، وحساب على حسنات وسيئات، وغير ذلك مما هو معروف. ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعى بظنى. وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين، فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك فى المتواتر وجب صرفه عن الظاهر، أما بتسليم لله فى العلم بمعناه ، من اعتقاد أن الظاهر غير مراد، أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة.

أما أخبار الآحاد فإنه يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها، أما من لم يبلغه الخبر، أو بلغه وعرضت له شبهة فى صحته ، وهو ليس من المتواتر، فلا يظعن فى إيمانه عدم التصديق به . والأصل فى جميع ذلك: أن من أنكر شيئاً وهو يعلم أن النبى، ﷺ حدث به، أو قرره فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها، ويلحق به من أهمل فى العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة، وهو ما فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل.

من اعتقد بالكتاب العزيز، وما فيه من الشرائع العملية. وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هي في ظاهر القول، وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت، وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد، بحيث لا ينقص تأويله شيئا من قيمة الوعد والوعيد، ولا ينقص شيئا من بناء الشريعة في التكليف، كان مؤمنا حقا (١٢٢) ، وإن كان لا يصح اتخاذه قدوة في تأويله، فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها الى ما تبلغه طاقة العامة لا إلى ما تشتهي عقول الخاصة. والأصل في ذلك أن الإيمان هو البقين في الاعتقاد بالله ورسوله واليوم الآخر بلا قيد في ذلك إلا احترام ما جاء على السنة الرسل.

بقيت علينا مسألتان، وضعتا من هذا العلم في مكان من الاهتمام ، وما هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجمعنا القول فيه: الأول: جواز رؤية الله تعالى في الآخرة.

والأخرى: جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات، من غير الأتبياء ، من الأولياء والصديقين.

(١٢٢) هذه المسألة من المسائل التي أثارت جدلا قديما بين المفكرين، فالغزالي مثلا يرى تكفير من ينكر الأوصاف الحسية لما بعد الموت وللمعاد بوجه خاص ، بما في ذلك حشر الأجساد والعقوبات الحسية ، بينما يرى ابن رشد أن هذه الأوصاف الحسية «تشيل» يهدف إلى الاقتناع للجمهور ، لأن «تشيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تشيله بالأمور الروحية» .. والاستاذ الامام هنا يميل إلى رأي ابن رشد في هذا الموضوع . انظر (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) للغزالي ص ٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م و(تهافت التهافت) لابن رشد ص ١٢٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م .

رؤية الله

أما الأولى : فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المتزهنين لاجمال معهما للتنازع ، فان القائلين بجواز الرؤية من هل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعبود من رؤية البصر المعروف لنا في مجرى العادة ، بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون إلا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعبودة في الحياة الدنيا ، وهو ما لا يمكننا معرفته ، وإن كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر ، والمنكرون لجوازا لم ينكروا انكشافا يساويها ، فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعبود أو بحاسة أخرى فهو في المعنى يرجع الى قول خصومهم (١٢٣) . ولكن منى الاسلام يقوم بحجوب الخلاف ، والله فوق ما يظنون .

الكرامات

أما الثانية ، فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحاق الاسفراييني ، من أكابر أصحاب أبي الحسن الأشعري ، وعلى ذلك المعتزلة الا أبا الحسين البصري (١٢٤) فقال بجواز وقوعها ، وعليه جمهور الأشاعرة .

(١٢٣) أنظر في رأي المعتزلة حول هذه القضية بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) ص ٥٥-٥٧ . (ومنه تعلم أن هذا اللقاء بين الفريقين الذي يتحدث عنه الاستاذ الامام لم يحدث ، ويصعب أن يحدث)

(١٢٤) هو عبد الله الحسين بن علي البصري « ٣٩٩-٣٥٨هـ » كان تلميذا لابي هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي ، وهو معدود في الطبقة العاشرة من طبقات المعتزلة . أنظر المنية والامل ص ٦٦٦٢ .

واستدل الذاهبون الى الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم الكتاب الواردة فى خبر بلقيس، من احضاره عرشها قبل ارتداد الطرف (١٢٥) ، وقصة مريم عليها السلام، وحضور الرزق عندها (١٢٦) ، وقصة أصحاب الكهف (١٢٧).

واحج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات ، وأولوا ما جاء فى الآيات.

أما أن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات فليس بصحيح، لأن المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ، ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها، وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه، لأن ما فى قصة مريم وأصف (١٢٨) قد يكون بتخصيص من الله تعالى ، لوقوعه فى عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله فى أنبياء ذلك العهد إلّا قليلاً ، وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته فى خلقه ، وذكرنا بها - لنعتبر بمظاهر قدرته ، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز.

(١٢٥) الاشارة إلى قوله تعالى (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) الاية «النمل: ٤» .

(١٢٦) الاشارة إلى قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء - بغير حساب) . «آل عمران: ٣٧» .

(١٢٧) الاشارة إلى قصة أصحاب الكهف وتوهم الطويل ثم يقطعتهم . أنظر سورة الكهف (الآيات ٩ وما بعدها) .
(١٢٨) أي زكريا .

فيبقى البحث في جواز وقوع الكرامات نوعاً من البحث في متناول هم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير، وفي مكان الأعمال الصالحة، وارتقاء النفوس في مقامات الكمال من العناية الإلهية، وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر (١٢٩) -

أما مجرد الجواز العقلي، وإن صدور خارق للعادة على يد غير نبي مما تتناوله القدرة الإلهية، فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء، وإنما الذي يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة، أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان، ولا يكون إنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين، ولا مانعاً عن سنة صحيحة، ولا منحرفاً عن الطراط المستقيم.

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين في هذه الأيام؟ حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأتيا بمتفاخر فيها هم الأصفياء... وهو مما يبرأ منه الله ودينه وأوليائوه وأهل العلم أجمعون.

(١٢٩) هو التصرف.

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ، وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ،
وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لَا
يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْقَاسِيُونَ﴾ (١٣٠).

وقد فسّر الكفر في هذه الآية بكفر النعمة ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا
الْهُدَى آمَنَّا بِهِ ، لَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا
رَهَقًا وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِيُونَ لَمَنْ أَسْلَمَ
فَأَلْكَ تَحَرُّوْا وَرَشَدًا ، وَأَنَا الْقَاسِيُونَ لَكَانُوا لِيَجْهَنَّمَ
حَطْبًا ، وَالرَّاسِخُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً
غَدَقًا لَنَفْتَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ
عَذَابًا صَعَدًا ، وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ
أَحَدًا ، وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ

(١٣٠) (النور: ٥٥).

عَلَيْهِ لَبَدًا، قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ
 أَحَدًا، قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا، قُلْ
 إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ
 مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا، حَتَّى
 إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْتَعْلِمُونَ مَنْ أضعفُ قاصِرًا
 وأقلُّ عددًا، قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ
 يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا، عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى
 غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ
 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا
 رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ
 عَدَدًا ﴿١٣١﴾.

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ، وَبَلَغَ رَسُولُهُ الْكَرِيمُ وَخَشِيَ الشَّيْطَانُ
 الرَّجِيمُ، وَحَقَّ الشُّكْرُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

(١٣١) الجن: ١٢-٢٨.

مصادر التحقيق

ابن حجر العسقلاني : (تهذيب التهذيب) طبعة حيدر أباد سنة ١٣٢٥هـ

ابن رشد (أبو الوليد) : (تهافت التهافت) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٢م

ابن قتيبة: (المعارف) تحقيق: د. ثروت عكاشة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠م.

ابن المرتضى: (باب ذكر المعتزلة- من كتاب المنية والامل) تحقيق : ارنولد. طبعه الهندسة ١٣١٦هـ .

امين الخولى : (صلة الاسلام باصلاح المسيحية) طبعة القاهرة ١٩٣٥م.

الحسن البصرى: (رسالة فى القدر) منشوره فى كتاب (وسائل العدل والتوحيد) دراسة وتحقيق محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م

السبكي : (طبقات الشافعية الكبرى) طبعة القاهرة- الأولى .

طه حسين (دكتور) : (الفتنة الكبرى) طبعة القاهرة ١٩٧٠م.

عبد الجبار بن أحمد: (المغني فى أبواب التوحيد والعدل) طبعة القاهرة.

الغزال(ابو حامد): (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة)
طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

فان فلوتن: (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد
بنى أمية) ترجمة: د. حسن ابراهيم حسن، محمد ابراهيم. طبعة
القاهرة سنة ١٩٦٥م.

محمد عبده (الاستاذ الامام): (الاعمال الكاملة) دراسة
وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

محمد عمارة (دكتور): (المادية والثالنية فى فلسفة ابن
رشيد) طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م.

(المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) طبعة بيروت سنة
١٩٧٢م.

(نظرة جديدة الى التراث) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

(الاسلام والمرأة فى رأى الامام محمد عبده) طبعة القاهرة سنة
١٩٧٩م.

محمد فؤاد عبد الباقي: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن
الكريم) طبعة دار الشعب. القاهرة.

مراد وهبة (دكتور)

(وأخريين): (المعجم الفلسفى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

(دائرة المعارف الاسلامية) طبعة القاهرة - العربية - الأولى

الفهرس

عن الاستاذ الإمام .	ص ٤
عن الرسالة .	ص ١٨
تفهيد .	ص ٢٤
مقدمات .	ص ٢٦
* أقسام المعلوم * حكم المستحيل * أحكام الممكن * وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب	ص ٤٣ : ص ٤٧
أحكام الواجب	ص ٤٨
* صفات البرهان التي يجب الاعتقاد بها كالقدم ، والبقاء ، ونفى التركيب ، الخيانة ، العلم ، الإرادة ، القدرة ، الاختيار ، الوحدة الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها ، الكلام ، البصر والسمع كلام فى الصفات إجمالاً	ص ٤٨ : ص ٦٣
أفعال الله جل شأنه	ص ٦٤
أفعال العباد	ص ٧٠
* اختيار الانسان * حسن الأفعال وقبحها	ص ٧٤ : ص ٨٩

الرسالة العامة

ص ٩٠

* المعجزة * حاجة البشر إلى الرسالة * اللذة الروحانية
 * الحاجة الأخروية * الرسل والرسالة * إمكان الوحي * الملائكة
 * وقوع الوحي والرسالة * وظيفة الرسل عليهم السلام * اعتراض
 مشهور * سوء الاستعمال * رسالة محمد ﷺ ص ٩١ : ص ١٣٩

القوانين

ص ١٤٠

الدين الإسلامي .. أو : الاسلام

ص ١٤٥

* التوحيد * مكانة العمل * حرية الفكر والتجديد * اتفاق
 الأديان على التوحيد * اختلاف الأديان في العبادات * تطور
 الأديان * الاسلام * التعليم * الزكاة
 ص ١٤٦ : ص ١٧١

انتشار الاسلام بسومة لم يعهد لها نظير

ص ١٧٢

في التاريخ

* ايراد سهل الإيراد * الجواب ص ١٨٣ : ص ١٨٧

التصديق بما جاء به محمد ﷺ ص ١٨٨

ص ١٩٠

* رؤية الله * الكرامات

ص ١٩٣

خاتمة

ص ١٩٥

مصادر التحقيق

طبع بالمركز المصرى العربى ت : ٥٣٥٦٠٧

رسالة التعجيد

.. الله والانسان والرسالة والنبوة والعقائد
الاسلام ..

إن كتابا يكون هذا موضوعه لهو على جانب
عظيم من الخطر والأهمية .. ، فهذه الرسالة هي
واحدة من أهم نصوص الأستاذ الإمام الشيخ محمد
عبدعزیز أعلام مدرسة التجديد الديني في عصرنا
الحديث ..

في هذه الرسالة تبدو الروابط بين " العقائد "
وبين : " وظائفها " في واقع الانسان ..

وفي هذه الرسالة يظهر الاسلام بريئا من تلك
الكهانة التي جعلت الدين حرفة يحترفها قوم انتزعوا
لأنفسهم سلطان الله ..

وفي هذه الرسالة تتجلى نصرة الاسلام
كمن يهزم التقليد الذي قتل روح الريادة
والإبداع في الأمة ..

Bibliotheca Alexandrina



0402263

